الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون - تيارت -

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

تخصص: تاريخ

مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستر تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط الموسومة بـ

العلاقات السياسية والتجارية بين الممالك النصرانية والأندلس في عهد الموحدين (5هـ 7هـ)

إعداد الطالبات:

- عبد الله وفاء
- عرقوب العالية
- خرباش هوارية

إشراف الأستاذة:

خرفي نوارة

لجنة المناقشة

أ.د. روابحي خيرة	رئيسا
أ.د. خرفي نوارة	مشرفا ومقررا
أ. د. بورملة عربية	عضوا مناقشا

الموسم الجامعي:

(1439هـ 1440) الموافق لـ(2019- 2020م)

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الشكر لله عز وجل الذي وفقنا لإتمام هذا العمل

ومن بعده:

نشكر الأستاذة المشرفة "شرقي نوارة" التي ساعدتنا بتوجيهاتها ونصائحها القيمة.

ونتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى جميع أساتذة قسم التاريخ بجامعة ابن خلدون تيارت.

ونتوجه أيضا بالشكر إلى كل من ساعدنا في إتمام هذا العمل من قريب أو بعيد.

إهـــــداء

أهدي ثمرة جهدي:

إلى من قال فيه الله تعالى: "وأرسلناك رحمة للعالمين" حبيبي وقرة عيني محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

إلى من أحمل اسمه بكل افتخار، إلى من علمني معنى عزة النفس بدون اعتبار، أبي رحمه الله.

إلى من يفيض قلبها حبًا وحنانًا والدتي أطال الله في عمرها.

إلى كل العائلة الكريمة والأصدقاء والزملاء.

إلى الأساتذة الكرام دون استثناء فلهم مني جزيل الشكر على ما قدموه من جهود في سبيل العلم والمعرفة.

وفاء

إهـــداء

الحمد لله على إحسانه والشكر له على توفيقه وامتنانه لإتمام هذا العمل.

وأهدي ثمرة جهدي إلى الوالدين العزيزين اللذان أعاناني وشجعاني على الإستمرار في مسيرة العلم والنجاح.

إلى إخوتي الأعزاء "جميلة، هاجر، عبير، رؤية"، إلى أخي "حمزة" ولا أنسى ابنة عمي "نادية".

وجميع الأهل والأقارب والأصدقاء.

إل كل من ساعدني في إنجاز هذا العمل.

عالية

إهـــداء

إلى الوالدين الكريمين شفاهما الله وأطال في عمرهما.

إلى عائلتي الصغيرة، وأخواتي.

إلى كل من قدّم لي يد العونْ لإتمام هذا العمل.

إلى كل باحث شغوف متلهف ذو رغبة جامحة للإرتقاء في سلم العلم والمعرفة باستمرار.

إلى حبيبتي الجزائر والشقيقة فلسطين –حفظهما الله–

أهدي ثمرة هذا العمل المتواضع

السيدة: كرباش هوارية

قائمة المختصرات

1- القسم العربي:

الكلمات	اختصار
ج	جزء
ط	طبعة
ص	صفحة
ص ص	من الصفحة إلى الصفحة
(د.س)	دون سنة
(د.ط)	دون طبعة
ع	عصر
ق	قسم
(تح)	تحقيق
(تر)	ترجمة
مج	مجلد
م	ميلادي
هـ	هجري
مر	مراجعة
تخ	تخريج
در	دراسة

2- القسم الأجنبي

Traduction	Abréviation
Page	P

مقدمة

سعت الدولة الموحدية منذ قيامها على توسيع سلطانها، عبر كامل المغرب الإسلامي، وهذا بفرض سلطتها عبر نظمها الجهادية العسكرية، والتي كثيرا ما كانت بين حروب برية وبحرية، ولهذا احتاجت لكيان بحري ليسهل عليها مهمة الجهاد والتوسع فأولت اهتماما كبيرا لهذا المجال، وخاضت حروبا جهادية في بلاد الأندلس، وتواجهت مع الممالك النصرانية من أجل حماية حدودها.

فبالإضافة إلى الجانب السياسي فقد أولت الدولة الموحدية عنايتها بالجانب التجاري الذي يمثل أحد أركان نشاط الدولة الاقتصادي بل هو أهم ركن إذ لا يمكن تصور قيام سلطان الحياة السياسية إلا بوجود هيئات إدارية وواقع اقتصادي يتماشيان مع الواقع السياسي وجودا وعدما، ازدهارا وانحطاطا، فالتطور السياسي وما يصحبه من استقرار أمني يؤدي إلى الازدهار الاقتصادي والتجاري، وانطلاقا مما سبق فقد كان للدولة الموحدية علاقات سياسية وتجارية مع الممالك النصرانية وهذا ما سيكون موضوع دراستنا الذي جاء بعنوان: العلاقات المغربية النصرانية ما بين القرن 5هـ 7هـ.

ومما لا شك فيه أن هناك عوامل دفعتنا إلى اختيار هذا الموضوع وهي كالآتي:

– تعتبر الفترة التي نحن بصدد دراستها من أهم الفترات التي عرفها تاريخ المغرب الإسلامي إذ ارتبطت بوصول المغرب إلى عز قوتها وتطورها التي لم تشهدها من قبل ومعرفة أهمية ومكانة الجهاد البحري خلال العهد الموحدي.

– الموضوع يضم جوانب تاريخية متنوعة تتضمن التاريخ السياسي والتجاري.

– معرفة تاريخ الدولة الموحدية والتي هي جزء من مظاهر الحضارة الإسلامية وخصوصا موضوع علاقات الموحدين بالممالك النصرانية، فهذا الموضوع يبدو شائكا عند أغلب الباحثين والدارسين في التاريخ، وهذا ما دفعنا في الكشف عن هذه العلاقات ونتائجها.

وتكمن أهمية الموضوع في كونه يسلط الضوء على جانب مهم، وهو دور الموحدين في توحيد بلاد المغرب والأندلس تحت راية واحدة وحملهم لشعلة الإسلام لأكثر من قرن (549هـ 650هـ)، بالإضافة إلى دورهم في السيطرة على أهم الطرق التجارية سواءًا داخلية وساحلية التي سهلت الصلات التجارية بين الموحدين والممالك النصرانية، وصبغ الأنشطة التجارية بالصبغة الإسلامية الموحدية.

ولدراسة هذا الموضوع طرحنا إشكالية كانت على النحو الآتي:

ما واقع العلاقات السياسية والتجارية بين الممالك النصرانية والأندلس خلال عهد الموحدين؟

وتندرج عن الإشكالية تساؤلات كانت كالآتي:

- ما تجليات الصراع الموحدي النصراني في الجغرافية الأندلسية؟
- ما هي عوامل انهيار الصرح الموحدي؟
- كيف انعكست الاتفاقيات التجارية بين الطرفين على العلاقات السياسية بينهما؟

وللإجابة على الإشكالية السابقة، وباعتمادنا على المادة العلمية قمنا بتقسيم موضوعنا إلى فصل تمهيدي وفصلين وخاتمة.

حيث عنونّا الفصل التمهيدي بالواقع الجغرافي والتاريخي لبلاد المغرب الإسلامي والممالك النصرانية، ويندرج تحته خمسة مباحث تطرقنا في المبحث الأول إلى معرفة موقع وحدود المغرب الإسلامي، أما المبحث الثاني فتحدثنا عن أقسام بلاد المغرب الإسلامي، فقدمنا فكرة عن المغرب الأدنى والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والأندلس، أما المبحث الثالث فقمنا بتعريف سكان بلاد المغرب وهم البربر والأفارقة والسودان والأندلس، والمبحث الرابع تحدثنا عن نشأة الدولة الموحدية، بحيث تطرقنا إلى ظهور الموحدين ومجيء محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن تومرت، ونسبهم ومعرفة قيام الدولة الموحدية وجهودهم في إسقاط دولة المرابطين، أما المبحث الخامس فتناولنا فيه نبذة حول الممالك النصرانية وتطرقنا إلى مملكة قشتالة، أراغون، ليون، نفارا، البرتغال، البندقية، جنوة، وبيزة، وأسباب قيام هذه الممالك.

أما الفصل الأول فقد كان بعنوان: "الصراع الموحدي النصراني"، حيث يحتوي على ثلاثة مباحث: فخصصنا المبحث الأول للحديث عن الظروف التي سبقت موقعة الأرك ووضحنا فيه حروب الموحدين مع ليون ومع البرتغال، أما المبحث الثاني تناولنا فيه موقعة الأرك التي تعتبر من أعظم المعارك التي انتصر فيها المسلمون في الأندلس على النصارى، وفي المبحث الثالث تطرقنا إلى معركة حصن العقاب في عهد الخليفة محمد الناصر التي كانت فاصل تحول في مصير الوجود الإسلامي في الأندلس وبالنسبة للموحدين النهاية، وأسباب هذه الهزيمة وأهم نتائجها.

أما الفصل الثاني كان بعنوان العلاقات التجارية بين الموحدين والممالك النصرانية، بحيث يحتوي على أربعة مباحث فخصصنا المبحث الأول للحديث عن الحياة الاقتصادية للدولة الموحدية بحيث تناولنا فيها الحديث عن الزراعة والصناعة، أما المبحث الثاني فتحدثنا عن التجارة قبيل الموحدين (في عهد المرابطين) والذي تناولنا فيه عوامل ازدهار التجارة والبيوع المتداولة في المبادلات التجارية الموحدية، وكذلك تطرقنا إلى ذكر آليات المبادلات التجارية من بينها الموازين والمكاييل والعملة، وكذلك تطرقنا إلى الطرق والمسالك التجارية ووسائل النقل، ذكرنا فيه المسالك البرية والبحرية ووسائل النقل البحري، والمنشآت التجارية من بينها الفنادق.

أما المبحث الثالث فتحدثنا فيه عن العلاقات التجارية للدولة الموحدية مع البلدان الأوروبية، وذكرنا فيه العلاقات التجارية مع المدن الإيطالية منها جنوة وبيزة والبندقية، وكذلك العلاقات التجارية مع الممالك الإسبانية، أما المبحث الرابع فتطرقنا إلى معرفة المبادلات التجارية بين الموحدين والممالك النصرانية، بحيث ذكرنا الصادرات والواردات، وختمنا موضوع البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج والاستنتاجات التي خرجت منها الدراسة.

أما المنهج المتبع في الدراسة فقد كان منهجا تاريخيا وصفيا تحليليا مقارنا يعتمد على وصف الأحداث التاريخية والسياسية وعرض المعارك الحربية ومقارنتها وتحليل أسبابها ونتائجها ووصف السلع التجارية التي كانت تصدر وتستورد في الفترة المدروسة.

تطلبت طبيعة الموضوع الاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع وبعض الرسائل الجامعية.

– كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفي سنة 808هـ/406م، من أبرز لمؤرخين الذين اهتموا بتاريخ الغرب الإسلامي، ولأنه من أهل هذا الصقع فقد أفاد بما معه من روايات وأخبار ومعرفته بجغرافية المنطقة، ولذلك خصص الجزء السادس من كتابه للتاريخ لبلاد المغرب والأندلس وقد أفادنا هذا الجزء في تتبع أنساب القبائل البربرية والتعريف بها وبمواطن تواجدها.

– البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لمؤلفه "أبي العباس أحمد بن عذارى المراكشي" تحقيق إبراهيم الكتاني وآخرون القسم الخاص بالموحدين، وقد أفادنا هذا المصدر في معرفة أخبار الموحدين وما حققوه من نصر وتأييد في البلاد الأندلسية.

– الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس "لعلي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، ويتناول هذا الكتاب عموما تاريخ المغرب عموما، وتاريخ مدينة فاس خصوصا، وبالتالي فقد استفدنا منه في دراسة ظهور الدولة الموحدية ودخولها الأندلس وصراعها مع النصارى.

– الروض المعطار في خبر الأقطار لصاحبه أبي عبد الله بن عبد المنعم الحميري، تحقيق إحسان عباس، فرغم أن الكتاب يصنف ضمن المعاجم الجغرافية لمدن الأندلس إلا أن هذا لا يمنع من أن يحتوي على معلومات تاريخية مهمة.

– المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك لصاحبه البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت478هـ)، والذي أفادنا في معرفة المسالك التجارية وأهم المنتجات الاقتصادية التي لعبت دورا في مجال التبادل التجاري.

– نزهة المشتاق في اختراق الآفاق لصاحبه الإدريسي محمد بن عبد الله السبتي ق(6هـ)، والذي أفادنا خاصة في طبيعة المنتجات ومجال المبادلات والمسالك والمراكز التجارية.

– كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب لصاحبه الونشريسي أبي العباس أحمد بن يحيى (ت914هـ)، والذي أفادنا في المعاملات التجارية والأوزان والعملة.

أما المراجع:

– جهاد الموحدين في الأندلس لمؤلفه "معمر الهادي محمد القرقوطي" حيث تناول هذا الكتاب جانب مهم من جوانب تاريخ الموحدين وهو جهادهم في الأندلس خلال القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري منذ نشأة الموحدين وقيام دولتهم إلى غاية خروج الأندلس عن طاعتهم.

– دولة الإسلام في الأندلس لمؤلفه "محمد عبد الله عنان" وقد أفادنا هذا الكتاب في تاريخ المغرب والأندلس من الفتح حتى النهاية والسقوط ويعتبر مهما جدا لتميزه بوفرة المعلومات

والروايات واحتوائه على العديد من المخطوطات وقد ساعدنا في الحصول على الكثير من المعلومات خاصة في الفصل الأول بخصوص معركة الأرك وموقعة العقاب.

– علاقة الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس لمؤلفه "هشام أبو رميلة" وهو كتاب هام نظرا لتناوله معلومات كثيرة ومفيدة حول العلاقات بين الموحدين والنصارى وما جرى بينهم من غزوات ومعارك.

– النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس هجري لصاحبه عز الدين أحمد موسى، والذي أفادنا في معرفة المسالك والطرق التجارية البرية والبحرية وأهم الصادرات والواردات.

أما الصعوبات التي واجهتنا أثناء دراستنا لهذا الموضوع صعوبة الوصول إلى التعرف بالممالك النصرانية وذلك من خلال قلة المصادر والمراجع التي تناولت الحديث عن الممالك النصرانية.

المدخل:

الواقع الجغرافي والتاريخي لبلاد المغرب الإسلامي والممالك النصرانية

- المبحث الأول: موقع وحدود المغرب الإسلامي
- المبحث الثاني: أقسام بلاد المغرب الإسلامي
- المبحث الثالث: سكان المغرب
- المبحث الرابع: المغرب الإسلامي سياسيا
- المبحث الخامس: الواقع السياسي للممالك النصرانية

المبحث الأول: الموقع والحدود:

اختلف المؤرخون والجغرافيون في تحديد وضبط المنطقة الجغرافية لبلاد المغرب الإسلامي فجعله البعض يشمل بلاد إفريقيا، بالإضافة إلى الأندلس وجميع الممتلكات الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط مثل صقلية[1]، وجنوب إيطاليا وجزيرتي سردينيا وكورسيكا وجزر البليار أو الجزر الشرقية[2].

وذكر ابن عذارى المراكشي في كتابه "البيان المغرب"، أن حد المغرب هو من ضفة نهر النيل[3] بالإسكندرية[4] إلى طرابلس[5]، ويقال لها بلاد الزاب الأعلى[6]، ويلي هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل، وحدّها إلى مدينة تيهرت[7]، ويليها بلاد المغرب وهي بلاد طنجة وحدّها مدينة سلا وهي آخر المغرب، ويضيف المراكشي بلاد الأندلس إلى المغرب بقوله: "وبلاد الأندلس أيضا من المغرب وداخلة فيه لاتصاله به"[8].

---

[1]– صقلية: جزيرة بالبحر المتوسط قريبة من المغرب الأدنى ومن إيطاليا، وهي تنسب إلى مدينة بها ومعناها باللغة القديم "تين وزيتون" افتتحها الأغالبة بقيادة العالم الجليل أسد بن الفرات، أميرا وقاضيا، سقطت في أيدي الصليبيين وأميرهم روجير الأول سنة 453هـ/1060م. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر الثقافية، لبنان، 1979م، د.ط، ص:366.

[2]– عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، دس، القاهرة، دط، ص: 12.

[3]– النيل: كلمة مشتقة من "نيلوس" اسم هذا النهر العظيم باللغة اليونانية. ينظر: أمين واصف بك، فهرست معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، تح: أحمد زكي باشا، مكتبة الثقافة الدينية، دار المصري للطباعة، د.س، د.ط، ص: 107.

[4]– الإسكندرية: مدينة وثغر على بحر الروم بناها الإسكندر المقدوني سنة 331ق.م، كانت لعصر البطالسة، دار العلوم والفنون بالمشرق إذا انتقلت إليها آداب اليونان وحضارتهم وكان فيها مكتبة شهيرة لا نظير لها في العالم أحرقها عساكر يوليوس قيصر وبها دفن الإسكندر. ينظر: أمين واصف بيك، المصدر السابق، ص: 09.

[5]– ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج.س.كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط3، بيروت، لبنان، 1983م، ط3، ج1، ص: 05.

[6]– الزاب الأعلى: يمتد من طرابلس إلى بلاد الجريد. ينظر: ابن عذارى، المصدر السابق، ص: 05.

[7]– تيهرت: تقع في المغرب الأوسط في مكان يتوسط التل والصحراء وبها طرق تجارية تمتد غربا إلى المغرب الأقصى وهي عاصمة الرستميين أسسها عبد الرحمن بن رست.م ينظر: محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160–296هـ) كلية الآداب، جامعة المنصورة، د،س، ط3، ص: 97.

[8]– ابن عذارى، المصدر السابق، ص: 05.

وقد أطلق العرب كلمة المغرب على تلك المساحات الواسعة التي تلي مصر غربا حتى المحيط الأطلسي[1]، وتتضمن حاليا البلاد الليبية وتونس والجزائر والمغرب"[2].

وحقيقة المغرب، هو المكان الواقع في شق المغرب قال أحد الشعراء:

غـــــرب شـــــيء ملـــــيح ولـــــــي دليـــــل عليـــــه
البـــــدر يرقـــــب منـــــه والشـــــمس تجـــــري إليـــــه[3]

والمراد بكلمة المغرب هو معظم المناطق التي تمتد من الحدود الغربية لمصر[4]، حتى حتى ساحل المحيط الأطلسي ويختلف المؤرخون في وضع مصر بين العالم الإسلامي وغربه، كما اختلفوا في حد مصر الغربية، ففي العصور الوسطى كان إقليم برقة[5] داخلا في حدود مصر[6].

وبالتالي فإن المغرب يقع في الجزء الشمالي من إفريقيا[7]، حيث يقول ابن حوقل في كتابه "صورة الأرض": "...وأما المغرب فبعضه يمتد على بحر المغرب في غربيه ولهذا

---

[1]– محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص: 11.

[2]– عبد الحميد حسن حمودة، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2006م، ط1، ص: 11.

[3]– علي الجزنائي، زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تح: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الكلية، الرباط، 1419هـ 1991م، ط2، ص: 05.

[4]– عبد الواحد ذو نون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2004م، ط1، ص: 39.

[5]– إقليم برقة: تقع شمال الأراضي الليبية على ساحل المتوسط في أول ما ينزل القادم من مصر إلى القيروان. انظر:الإدريسي بن عبد الله محمد بنّ إدريس الحموي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج 1، مكتبة الثقافة الدينية للنشر، القاهرة، 2002، (دط)، ص: 31.

[6]– حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة أسرة الأعمال الفكرية، 2004م، د.ط، ص: 24.

[7]– محمد الأمين محمد ومحمد علي الرحماني، المفيد في تاريخ المغرب، دار الكتب، الدار البيضاء، ذ.س، د.ط، ص: 07.

البحر جانبان شرقي وغربي...وأما الغربي فمن مصر وبرقة إلى إفريقيا وناحية تنس، إلى سبتة وطنجة"[1].

ويضيف الاصطخري إلى هذا كله الجانب الغربي ألا وهو الأندلس[2]، فهو بذلك يضم الأندلس إلى المغرب[3].

واتفقت جمهرة العرب والمؤرخين على تحديد كلمة مغرب بالأراضي الإسلامية الممتدة غربي مصر[4]، إلى المحيط الأطلسي، فهناك المغرب الإفريقي والمغرب الأندلسي، وعلى هذا هذا الأساس كانت مدينة الإسكندرية هي الحد الفاصل بين المغرب والمشرق[5]، أما من جهة الجنوب فيمتد البحر المحيط إلى ما وراء سجلماسة[6] وحتى بلاد برقة شرقا[7].

---

[1]– ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي (ت367هـ/977م)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، 1996م، (دط)، ص: 64.

[2]– الأندلس: بضم الدال وفتحها وهي كلمة أعجمية لم تستعملها العرب في القديم، كانت لها العديد من التسميات فنجد لفظ أفيوس ويقصد بها بلاد الحياة، كما أطلق عليها اسم وندلسيا، وأما لفظة الأندلس اسم أطلقه العرب المسلمون على شبه جزيرة إيبيريا التي تقع شمال العدوة المغربية وهو شبه مثلث. ينظر: ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله (ت624هـ1229م)، معجم البلدان، دار صادر للنشر، بيروت، لبنان، 1977م، د.ط، ج1، ص: 263. علي دندش وبلال قنيفي، طرائق الزراعة في بلاد المغرب والأندلس خلال القرون الأربعة الأولى من الفترة الإسلامية، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة محمد بوضياف، 2016–2017م، المسيلة، ص: 13. بوحسون عبد القادر، الأندلس في عهد بني الأحمر، دراسة تاريخية وثقافية (635هـ897هـ/1238–1492م)، أطروحة دكتوراه، جامعة ابي بكر بلقايد، 2012–2013م، تلمسان، ص: 02.

[3]– لمياء أحمد شافعي، المغرب الأدني في عهد ولاة بني العباس حتى قيام الأغالبة، أطروحة لنيل شهادة الماجستير، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، 1420هـ، كلية الشريعة والدراسات العليا، ص: 19.

[4]– مصر: وتسمى باللغة السامية "مصير" ومصري وقرئت في الآثار الأشورية "موصور" وفي اللغة العربية "ماصور" وعند وعند اليونان Egyptus مملكة من أقدم ممالك الأرض حضارة ومدينة بدليل ما فيها من الآثار الضخمة القائمة شمالا وجنوبا. ينظر: أمين واصف بك، المصدر السابق، ص: 107.

[5]– عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، المرجع السابق، ص: 13.

[6]– سجلماسة: مدينة جنوب المغرب الأقصى وهي تعتبر أول حضارة أقامها المسلمون في المغرب الأقصى، ومناخها صحراوي، شديدة الحر والبرد معا. ينظر: الاصطخري أبي إسحاق بن إبراهيم بن محمد الفارسي، المسالك والممالك، مطبعة بريل، مدينة ليدk، المحروسة، (دت)، (دط)، ص: 39.

[7]– عامر عبد الله حسن، دولة بني مرين تاريخها وسياستها تجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك النصرانية في إسبانيا (668–869هـ/1269–1465م)، أطروحة لنيل شهادة الماجستير، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، 1424هـ/2003م، فلسطين، ص: 42.

المبحث الثاني: أقسام بلاد المغرب الإسلامي:

من المعلوم أن بلاد المغرب لم تعرف وحدة جغرافية متماسكة الأطراف إلا أيام الدولة الموحدية، إلا أن الضرورة تدعوا إلى تقسيم هذه المنطقة حسب المناسبات، إضافة إلى أن كثرة النزاعات كانت من أهم الأسباب في تغيير المجال الجغرافي للمنطقة، لذلك قسم المغرب إلى ثلاثة أقسام[1]:

1. المغرب الأدنى:

وتسمى أيضا إفريقية[2]، ويحدد مجالها الجغرافي من برقة أو طرابلس غربي مصر[3]، إلى الأجزاء الشرقية للجزائر، وكانت الجناح الشرقي لبلاد المغرب، وكانت عاصمتها القيروان في فترة الحكم الأغالبي، وامتد نفوذها من سواحل طرابلس حتى غرب قسنطينة، ثم تصبح المهدية عاصمة لها عام 921م، أيام الفاطميين[4].

واختلف جغرافيو العرب فيما بينهم في تحديد موضع إفريقية فيذكر البكري (ت487هـ) وينقل عنه الدمشقي وابن أبي دينار أن حد إفريقية طولا من برقة إلى مدينة طنجة وعرضا من البحر الرومي إلى الرمال أو بلاد السودان[5].

ولفظة إفريقية مشتقة من كلمة أفري **Aphry** التي أطلقها الفينيقيون على سكان أوتيكا **Utica** وقرطاجنة، ثم عممه اليونان بعد ذلك، فأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي[6].

---

[1]– طيبي سهام: المعادن في بلاد المغرب الإسلامي الوسيط، مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الوسيط الإسلامي، جامعة 08 ماي قالمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1438هـ1439هـ/ 2016–2017م، ص: 14.

[2]– إفريقية: عند أهل العلم يعنون بهذا الاسم القيروان، وقيل أنها سميت إفريقية باسم أهلها وهم الأفارقة والأفارقة. ينظر: محمد بن أبي القاسم الرغيبي القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المؤنس في إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحضارتها المحمية، 12674هـ، ط1، ص : 15–16.

[3]– أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، د.س، د.ط، ص: 10.

[4]– طيبي سهام، المرجع السابق، ص: 14.

[5]– عبد الحميد حسين، المرجع السابق، ص: 12.

[6]– عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، جامعة الإسكندرية، د.س، د.ط، ص: ص: 41.

ومن مدنه المشهورة زويلة وودّان وجرمة وغدامس واسمها القديم Cydamus، وهذه من إقليم فزان وفتحت في خلافة معاوية بن أبي سفيان، بالإضافة إلى القيروان[1]، والأربس Larbus، وباغاية وتوزر[2] (قسنطينة)، وقابس وفتح أكثر هذه البلاد معاوية بن حديج[3]، وفي عهد الدولة الفاطمية كانت عاصمتها المهدية[4].

2. المغرب الأوسط:

يمتد من الحدود الغربية لمدينة بجاية شرقا في واد ملوية[5] غربا، الذي يعد الحد الفاصل بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى وقاعدته مدينة تلمسان، ويسمى بالأوسط لأنه يتوسط بين المغربين الأدنى والأقصى عاصمته تاهرت في عهد الدولة[6] الرستمية[7].

وهذا الإقليم هو نوميديا قديما، وأول من دخل المغرب الأوسط من أمراء المسلمين، أبو المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري عامل إفريقية من قبل معاوية بن أبي

---

[1]– القيروان: مدينة عظيمة بالمغرب الأدنى، بناها عقبة بن نافع سنة 45هـ، وجعلها معقلا وحصنا لعسكره، ومقرا لولاية إفريقية، ومعنى القيروان: القافلة إذا خرجت لمحاربة أو غزو. ينظر: أمين واصف بك، المصدر السابق، ص: 97.

[2]– توزر: مدينة من بلاد الجريد محصنة كثيرة الخيرات، خاصة التمر الذي يعم كافة إفريقية. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ص: 144–145.

[3]– أمين واصف بك، المصدر السابق، ص ص: 109–110.

[4]– المهدية: مدينة عظيمة من أعمال المغرب الأدنى، بناها المهدي رأس دولة العبيديين وكانت حصينة جدا ثم كانت قاعدة الدولة الصنهاجية (390هـ–596هـ). ينظر: أمين واصف بك، المصدر السابق، ص: 113.

[5]– واد ملوية: هو آخر المغرب الأقصى وهو نهر عظيم منبعه من جبال قبيلة تازى، ويصب في البحر الرومي عند غساسة. أنظر: ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مر: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة، دب، 1421هـ 2000م، دط، ج6، ص: 133.

[6]– الدولة الرستمية: (160–296هـ/776–908هـ): أسسها عبد الرحمن بن رستم، واختار مدينة تاهرت عاصمة لدولته واتخذها كحصن لحماية الإباضيين من الأخطار الخارجية، وكان لهذا الموقع الجغرافي آثره في قوة ونماء الدولة ونجاح، دعايته الواسعة التي قام بها لنشر تعاليم المذهب الإباضي. ينظر: عبد الحميد حسن محمود، المرجع السابق، ص ص: 321–324. محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص: 91.

[7]– حسن إبراهيم حسن، تاريخ المغرب العربي في عصر الولاة، مطبعة المختار القاهرة،، 1997، ص: 08. مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تح: سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة الجامعة، الإسكندرية، 1958م، د.ط، ص: 129.

سفيان، حيث هزم جيوش الروم بقيادة كسيلة وهو من عظماء البربر واستولى على تلمسان، وأهم أنهار هذا الإقليم نهر[1] وادي الشلف[2].

كما يعتبر المغرب الأوسط القسم الثاني لبلاد المغرب[3]، وكانت حدوده تعتبر بشكل دائم حسب قوة الدولة التي تحكم المنطقة، وكان نهر الملوية يمثل الحد الطبيعي الذي يفصلها عن بلاد المغرب الأقصى، يذكر ابن خلدون أن المغرب الأوسط تجاوزه من جهة المشرق بلاد صنهاجة[4]، والمدية ومتيجة وما يليها إلى بجاية وهو يعني بهذا أن نهر الشلف هو الحد الشرقي ببلاد المغرب الأوسط ويمثل نهر الشلف لحدود الغربية لدولة[5] الأغالبة[6].

3. المغرب الأقصى:

يطلق لفظ المغرب الأقصى على المنطقة التي يحدها شمالا البحر المتوسط ومضيق جبل طارق، ومن الجنوب الصحراوي لوادي درعة[7] ويحده واد ملوية شرقا يفصله عن المغرب الأوسط ثم المحيط الأطلسي غربا[8].

---

[1]– وادي الشلف: هو نهر كبير مشهور، عليه مدينة قديمة أزلية تسمى الشلف، وإليها يصب النهر. ينظر: بن عبد ربه، الاستبصار في عجائب الأمصار، تح: سعد زغلول عبد الحميد، دار شؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ط، ص: 177.

[2]– أمين واصف بك، المصدر السابق، ص: 110.

[3]– طيبي سهام،المرجع السابق، ص: 15.

[4]– صنهاجة: تحتل صنهاجة قلب المغرب الأوسط، تمتد من جبال زواوة غرب إقليم كتامة إلى المسيلة في الجنوب وبين البحر المتوسط إلى جبل زكار على طول نهر الشلف غربا، وتشرف شمالا، على واجهة بحرية شاسعة تمتد من بجاية إلى غرب جزائر مزغنة، أما حدودها الجنوبية فتنتهي عند مدينة المسيلة شمال قبيلة زناتة البترية. ينظر:رضا بن النية، صناهجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين بمصر (80هـ699م/632هـ/973م)، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005–2006، ص: 25.

[5]– الأغالبة: أسسها إبراهيم بن الأغلب (296هـ/800م) كان مواليا للخلافة العباسية بالمشرق ولم يتنكر لها بلا وفّى التزاماته برفع شعار بين العباس ودفع الإتاوة سنويا. ينظر: ابن وردان، تاريخ مملكة الأغالبة، تح: محمد زينهم، محمد غربان، مكتبة مديولي ، د.ب، 1988م، ط1، ص ص: 20–23. محمود إسماعيل،الأغالبة (184–196م) وسياستها الخارجية، ط3، 2000م، عين الدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية، ص: 28.

[6]– حفصاوي الزهرة، صنهاجة ودورها في الصراع المذهبي بلاد المغرب الأوسط (297–543هـ/909–148م)، مذكرة لنيل شهادة الماستر في تاريخ المغرب الأوسط، جامعة ابن خلدون، 2013–2014، تيارت، ص: 14.

[7]– مجدي يس عبد العال، عبد الله سلام، العلاقات التجارية بين دولة بني مرين والجمهوريات الإيطالية (جنوة، بيزة، البندقية)، 656–865هـ/258–646م)، رسالة دكتوراه، شعبة التاريخ الإسلامي، ق التاريخ، 2004–2005م،ص: 39.

[8]– عبد الحميد هلال عبد الحميد، الزراعة في المغرب الأقصى في عصري الموحدين وبني مرين (524هـ/113–1949م)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب، تخصص التاريخ الإسلامي، كلية الأدب، ص: 09.

ويسمى بذلك لبعده الكبير عن مركز الخلافة وتقع في الجزء الشمالي الغربي من قارة إفريقيا محصورة بين درجتين عرض 15 و36 درجة شمالا، و0 و18 درجة غربا وشرقا، مطلة بذلك على بحر الروم[1]، والمحيط الأطلسي[2].

وشمل المغرب الأقصى خمسة أقاليم هي: فاس[3]، مراكش، السوس، درعة، سجلماسة، سجلماسة، كما يطلق عليه البعض اسم مراكش على غرار التسمية الأوروبية MAROC[4].

وبالنسبة لابن خلدون يرى أن المغرب الأقصى هو ما بين وادي ملوية من جهة الشرق إلى حاضرة البحر المحيط وجبال درن من جهة الغرب، فهي في الأغلب ديار المصامدة من أهل درن وبرغواطة وغمارة[5].

من مدنه المشهورة سبتة[6]، طنجة[7]، أصيلا، وتازة[8]، فاس، أغمات، وليلي[9]، وسلا وتطوان ومراكش وسجلماسة، ومنه إقليمان بالجنوب الغربي وهما، السوس الأدنى ومدينة أكادير وحده من شمال جبال درن Altas والسوس الأقصى ومدينة درعة.

---

[1]– بحر الروم: هو البحر المتوسط ويقال له البحر الشامي وهو يتصل إلى بلاد الشام ويقال له أيضا بحر الإسكندرية. ينظر: المراكشي، المصدر السابق، ص: 06.

[2]– طيبي سهام، المرجع السابق، ص: 15.

[3]– فاس: مدينة متوسطة في المغرب الأقصى، بينها وبين كلا من وسبتة ومراكش وتلمسان مسيرة عشرة أيام وهي عدوتين (عدوة القرويين، وعدوة الأندلسيين)، تأسس على يد الأدارسة حوالي 2هـ/9م. ينظر: عبد الحميد هلال، المرجع السابق، ص: 06.

[4]– عبد الحميد حسين، المرجع السابق، ص: 14.

[5]– ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 133.

[6]– سبتة: مدينة بالمغرب الأقصى على ساحل بحر الزقاق، تجاه جبل طارق وتبعد عنه سبعة عشر ميلا، وهي على شبه جزيرة، وسميت سبتة لأنها مبنية عل سبعة أجبل، فتحها مولى بن نصير سنة 88هـ. ينظر: أمين واصف بك، المصدر السابق، ص: 64.

[7]– طبنجة: فرضة من بلاد المغرب الأقصى، تقع على البحر الأخضر، كانت تسمى عند الرمان طنجيس...، أمين واصف بك، المصدر السابق، ص: 89.

[8]– تازة: بلدة حصينة تقع على وادي سبو على بعد سنتون ميلا من فاس إلا شرق وهي مركز تجاري بين الجزائر وتلمسان وتلمسان وفاس وبينهما وبين فجيج وتافليلات طرق للقوافل. أمين واصف بك، المصدر السابق، ص: 40.

[9]– وليلي: مدينة متوسطة بالمغرب الأقصى حصينة لها سور قديم، اتخذها محمد بن إدريس قاعدة له. ينظر: أمين واصف واصف بك، المصدر نفسه، ص: 122.

وأنهر أنهاره: وادي ملوية، وواد سبو، ويصب بالبحر الأعظم شمال سلا[1]، وواد أم الربيع ويصب البحر الأخضر عند أزمورة، ونهر تنسفت ويصب بالبحر الأعظم بين أسفى ومغراوة، ونهر السوس يصب عند أكادير، والقسم الشمالي من المغرب الأقصى هو إقليم موريتانيا القديمة، والمعروف باسم المور، وأول من دخل من أمراء الإسلام المغرب الأقصى عقبة بن نافع وفتح العديد من المناطق بها[2].

4- الأندلس:

تقع شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية تفصلها من الشمال جنوب فرنسا جبال ألبرت وهي الحد الفاصل بين بلاد الإسلام وبلاد غاليش[3].

أما من الشمال والشمال الغربي المحيط الأطلسي والذي يعرف في بعض المصادر بالبحر المظلم وبحر الظلمات، والبحر المحيط والبحر الأخضر وبحر أقياش، أما شواطئها الشرقية والجنوبية الشرقية فهي تقع على البحر المتوسط الذي يعرف بالبحر الشامي بحر تيرات، وبحر ما نطس والبحر الرومي، إلى أن ينتهي إلى أشيق منطقة وهي جبل طارق.

وخير من حدد موقع الأندلس المؤرخ والجغرافي أحمد الرازي حيث قسمها تقسيما طبيعيا أندلسيين، أندلس غربي الذي يبدأ من ناحية المشرق من المغاربة الخارجية من الجوف إلى بلد شنتمرية [4] طالعا على صور أغريطة المجاور بطليطة مائلا إلى الغرب ومجاورا للبحر المتوسط الموازي لقرطاجنة الحلفاء التي من بلاد لورقة [5] كما قام الرازي

---

[1]- سلا: فرضة على المحيط الإطلنطي في المغرب الأقصى، عنده مصب الوادي المعروف بأبي الرقراق، المعروف ، الكتب العلمية القديمة، بنهر نيهتا، ينظر: أمين واصف بك، نفسه، ص: 69.

[2]- أمين واصف بك، نفسه، ص ص: 110-111.

[3]- غاليش أو غاليوش: ويقصد بها بلاد الغال (Gallio) وهي تمثل قسما كبيرا من فرنسا، ينظر: البكري جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تر: عبد الرحمان على الحجي، دار الإرشاد، بيروت، 1986، د ط، ص 59.

[4]- يجب لتفرقة بين شنتمرية الغرب والتي تمثلها حاليا مدينة "قارو" وشنتمرية الشرق والتي تقع في شرق مدريد، البكري، المصدر السابق، ص69.

[5]- لورقة: تعني باللاتينية (الدرع الحصين) لوقوعها على جبل أكسبها حصانة ومناعة، ينظر: الحميري، الروض المعطار، المعطار، المصدر السابق، ص 512.

بتحديد شكلها الذي يشبه المثلث فقال: "... وهي معتمدة على ثلاثة أركان: الأول هو الموضع منها ما هو بين الجوف والغرب من حيز جليقية حيث الجبل المرفي في البحر"

يفهم من نص الرازي أن الأندلس تتخذ شكلا مثلثيا[1].

المبحث الثالث: سكان بلاد المغرب:

سكن منطقة شمال إفريقيا منذ عصر مبكر الأمازيغ والأفارقة، فضلا عمن طرأ بعد ذلك من أجناس أخرى، فالأفارقة هو خليط جنسي فيهم من تجري في عروقه الدماء السامية القرطاجية، ومنهم من انتسب إلى السلالة الآرية أي من بقايا الروم أو من الايطاليين[2].

وأطلق المؤرخون على مدى التاريخ أسماء مختلفة على بلاد المغرب، فقد كان الإغريق يسمون القسم الشمالي من قارة إفريقيا باسم ليبو وليبيا وقد ذكر هذا الاسم في التوراة الذي كان معظم سكانه ذوي البشرة البيضاء الذين عاشوا في أواسط إفريقيا[3]، أي من غرب مصر إلى المحيط الإطلنطي بينما ميز الرومانيون لاحقا بين إقليم قرطاجة وإقليم نوميديا وبلاد المور غربا، وأطلقوا اسم الجيتولين على سكان الجنوب الرحل[4]، وبالتالي تنوعت الأجناس ببلاد المغرب من بربر أو أمازيغ الذين يعتبرون أنفسهم أصحاب الوطن وأهله وأفارقة وسودان.

1. البربر

أ- التسمية

اختلف المؤرخون في تحديد تسمية البربر فهناك من يرجعها إلى اللغة أو اللهجة التي يتحدث بها سكانها، فابن خلدون يقول أن لغتهم من البربرة لذلك خصهم باسم البربر والبربرة

[1]- أخذها الرازي من هيروشيش، ينظر: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة، د س، 1986، ط 2، ص ص 18 – 19.

[2]- موسى القبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ط2، ص: 16.

[3]- طيبي سهام، المرجع السابق، ص: 11.

[4]- عبد العزيز غوردو، عبد الرحيم تمحزي، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب جدلية التمدين والسلطة، دار ناشري للنشر الإلكتروني، د.ب، 1432هـ/2011م، ط2، ص: 09.

بلسان العرب هي اختلاط الأصوات الغير مفهومة، ومنه يقال بربر الأسد إذ أزر بأصوات غير مفهومة[1].

أطلق الرومان اسم البربر على سكان بلاد المغرب لأنهم اعتبروهم غير متحضرين أو بدائيين[2]، وإذا قلنا كلمة بربر فقد استعملنا كلمة كانت رائجة في أوروبا[3]، والتسمية القديمة لسكان المغرب هي أمازيغ، وهي كلمة بربر معناها الرجل الحر[4]، وهم يمثلون سكان المغرب الأقدمين وقد ملأو سهوله وأريافه وضواحيه وأمصاره[5].

ب-أصلهم:

يرى علماء الأنساب أن البربر عموما من أصل حامي اختلطوا من قديم بأصول سامية أما مؤرخو العرب والبربر الذين اعتنوا بأنساب البربر وأحوالهم فيرجعون نسبهم إلى أصول عربية سامية[6].

وقالوا أن نسب المغرب اتخذ اسم أحد آبائه البعيدين وهو بر بن قيس بن عيلان ويتبنى هذا القول ابن حزم بشدة في جمهرة أنساب العرب[7].

حيث قال قوم أنهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام، وادعت طوائف نسبهم إلى اليمن إلى حمير، وبعضهم إلى برين قيس بن عيلان[8]، ومما يؤكد اختلاف انتسابه هو ابن خلدون: "وأما إلى ما يرجع نسبهم من الأمم الماضية فقد اختلف النسابون في ذلك اختلافا

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 117.

[2]- عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، المرجع السابق، ص: 14.

[3]- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، المركز الثقافي العربي، ط5، ، ج1، ص: 32.

[4]- أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص: 12.

[5]- موسى القبال، المرجع السابق، ص: 17.

[6]- أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص: 13.

[7]- عبد الحميد حسين، المرجع السابق، ص: 16.

[8]- ابن حزم الأندلسي، أنساب العرب، تح وتع: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، (دس)، ط5، ص: 495.

كثيرا ويحنوا فيه طويلا فقال بعضهم: "أنهم من ولد إبراهيم عليه السلام وقال آخرون أن البربر يمنيون"[1].

وهناك من يرى بأنهم وفدوا من آسيا في وقت مبكر ومنهم من يرى بأنهم أوربيون في الأصل، استوطنوا المغرب منذ عصور سحيقة[2]، فكثروا حتى صاروا في أمم لا تحصى ولا تعد[3].

وقال آخرون أنهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ[4]، وقد رجح ابن زيدان أنهم من ولد كنعان[5]، وأنه لما قتل ملكهم جالوت الفلسطيني وتفرقت منهم بنو كنعان قصدت منهم طائفة بلاد المغرب فسكنوا فيها وهم البربر[6].

ومهما كان الاختلاف حول إشكالية أصل البربر إلا أن المؤرخين والنسابة أجمعوا على تقسيم البربر إلى فرعين رئيسيين هما: البتر والبرانس[7].

- **البربر البرانس:** وهم البربر المستقرون الذين يعشيون على الزراعة.

- **البربر البتر:** وهم البربر الرحل سكان البادية الذين يعيشون على الرعي والتنقل[8].

وأصل كلمتي برانس وبتر كما يشير بعض المؤرخين جاء من شكل الملابس التي يرتدونها، فالبرانس نسبة إلى البرنس، وهو لباس أبيض عادة يغطي الجسم من الرأس حتى القدمين، الذين كانوا يرتدونه.

---

[1]- ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ص: 98.

[2]- عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، دار القومية للطباعة والنشر، د.ب، 1966م، د.ط، ص: 133.

[3]- علي بن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تح: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1399هـ/1972م، ص: 19.

[4]- ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ص: 98.

[5]- مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2005م، ط1، ص: 196.

[6]- ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناسن (دب)، 1929م، ط1، ج1، ص: 62.

[7]- إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، د.س، ط1، ص، ص: 10.

[8]- أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص: 13.

أما البتر فيرتدون هذا اللباس دون غطاء الرأس أي مبتور منها جاء اسم البتر كما يذهب البعض في أن هذا تفسير لغوي يقوم على أساس مبين لأن كلاهما يمثلان عرقيا فئتين مختلفتين وهما الوافدة والعناصر الأصلية[1].

2. الأفارقة:

هم بقايا الشعب القرطاجي وأخلاط من المستعمرين الذين تأثروا بالحضارة البيزنطية وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لسادتهم البيزنطيين ويعلمونهم الزراعة والصناعة، ورغم اعتناق الكثير منهم الإسلام إلا أن لهجتهم لم تتغير[2].

3. السودان:

كانت واحات الصحراء همزة وصل بين المغرب والسودان وتعود جذور تلك العلاقة إلى ما قبل العصر الفينيقي والقرطاجي، وكان عامل استخدام هؤلاء في الخدمات، خاصة الحراسة والفلاحة هو أساس جلبهم بكل الوسائل إلى بلاد المغرب[3].

4. سكان الأندلس:

من بين العناصر المكونة لسكان الأندلس المسلمين نميز نوعين:

المسلمين الجدد أي الإسبانيين الذين اعتنقوا الإسلام بعد الفتح نتيجة لتحولهم عن دينهم القديم، والنوع الثاني العناصر الأخيرة التي توطنت في البلاد نتيجة الهجرة من بينهم البربر الذين توطدت أقدامهم حتى استعرب هؤلاء البربر الأندلسيون إلى حد أنهم انصرفوا عن استخدام لهجاتهم الأصلية، كما حدث تدفق جموع أخرى من الجند من جراء تجنيد المرتزقة من البربر على نطاق واسع في المغرب الأوسط والشرقي ومن ثم دخل إلى الأندلس جماعة من شمال افريقية، والعنصر العربي في الأندلس لم يكن إلا أقلية.

---

[1]– عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 53.

[2]– عبد الحميد حسين، المرجع السابق، ص: 19. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، المرجع السابق، ص: 139.

[3]– عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، المرجع نفسه، ص: 20.

وهناك عنصر ثالث دخيل على المجتمع الأندلسي يضم العبيد والصقالبة[1]، فالعبيد هم الذين جلبهم النخاسون من السودان إلى إسبانيا وامتزجوا بسكان المدن نتيجة الجواز، أما السقالبة فهم الذين كانوا أسرى في القارة الأوروبية أو كانوا من الأسرى الذين اعتقلوا أثناء الحملات التي كانت على حدود الأندلس.

على الرغم من أن البربر والعرب والعناصر الإسلامية الأجنبية الأخرى كان لهم شأن كبير فإنهم كانو أقل عدد بكثير من جماعة المسلمين الجدد الذين عرفوا في الأندلس بإسمي جنس هما (المسالمة) أو (المولدون) وسرعان ما انصهر الكثير من المولدين في المجتمع الأندلسي بل هم نسوا أصلهم الإسباني (الإيبيري أو القوطي)[2].

المبحث الرابع: المغرب الإسلامي سياسيا

1- ظهور الموحدين:

كثيرا ما يصادف الباحث في التاريخ معلومات مهمة، لا ينبغي تجاهلها أو التغافل عنها، لعل من أبرزها أن حقيقة ظهور الدول تقوم على دعوى مذهبية معينة، وإيهام من حولها بالعدل والثقافية عكس النظام القائم التي تقوم بإظهار عيوبه وأنه حاد عن الكتاب والسنة، ولا نستثني الدولة الموحدية من ذلك.

والحديث عن دولة الموحدين يستلزم إعطاء فكرة عن أحوال الدول والإمارات التي كانت تحكم بلاد المغرب والأندلس[3]، وقد كانت بلاد المغرب والأندلس قبل ظهور دولة الموحدين تحكمها ثلاث إمارات كبرى: أولها إمارة بني زيري في بلاد المغرب الأدنى، وإمارة بني حماد[4] بالمغرب الأوسط، أما بلاد المغرب والأندلس فكانت تحكمه دولة المرابطين[5].

---

[1]- الصقالبة: اطلق العرب إسم الصقالية على جماعة من العبيد القادمين من الغرب وهم فرعان: صقالبة الشمال وصقالية الجنوب، ينظر: مؤلف مجهول، موسوعة المنجد في اللغة والأعلام، المكتبة الشرقية، بيروت، دس، ص 424.

[2]- ج س كولان، الأندلس، تر: إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980، ط1، ص ص 88 – 93.

[3]- مراجع عقيلة الغناي، قيام دولة الموحدين، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي 2008، ط2، ص: 35.

[4]- إمارة بني حماد: تعتبر ثاني دولة إسلامية قامت بالمغرب الأوسط، وهي ثمرة جهود حماد بن بلكين بن زيري، الذي شيد قلعة بني حماد بالمسيلة، وحكم بنو حماد المغرب الأوسط من (408-547هـ/1018-1152م). ينظر: بورويبة رشيد، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977-1397، ص: 117.

[5]- مراجع عقيلة، المرجع السابق، ص: 35.

نشأة دولة الموحدين شأنها شأن دولة المرابطين، فرغم اختلافهما في المذهب إلا أنهما قامتا على أساس ديني، وكان وراء كل دولة جهود رجل واحد، وهذا ما نجده في أغلب المصادر والمراجع التي تناولت الموضوع وابتدأت فيه بجهود محمد بن تومرت[1].

أ- محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن تومرت:

هو محمد بن عبد الله بن تومرت من أهل السوس وهي بلاد يسكنها بربر جفاة متقشفون في حياتهم، خشنون في مظهرهم، تغلب على طباعهم السذاجة وقوة الإيمان، والاعتقاد في القوى الخفية[2].

ولد ابن تومرت حوالي سنة 474هـ[3]، وهناك من يقول أن ميلاده كان في 469هـ،473هـ[4]، في إيجلي أن دارغن" قد تكون "جيلز الحالية" الواقعة جنوب المغرب الأقصى، وهو من قبيلة "هرغة" من قوم يعرفون بـ "إسريغن[5]"[6] وكان أبوه شيخ القبيلة، قضى قضى ابن تومرت طفولته يحفظ القرآن في مكتب القرية[7]، فتجمع في بن تومرت دم

[1]- حسن خضيري أحمد، علاقات الفاطميين بدول المغرب، مكتبة مدبولي، د.ب، د.س، ط1، ص: 88.

[2]- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2011، د.ط، ص ص: 83-84.

[3]- بوبة مجاني، التيارات السياسية والدينية وتأثيرها على نظم الحكم في بلاد المغرب والأندلس، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، ثورة أول نوفمبر 1954م، ط5، وزارة المجاهدين، ص: 241.

[4]- مراجع عقيلة، المرجع السابق، ص: 36.

[5]- إسريغن: وهم الشرفاء بلسان المصامدة وللشرفاء معنى يتصل بما زعمه ابن تومرت من امتداد نسبه إلى علي بن أبي طالب. ينظر: بوبة مجاني، المرجع السابق، ص: 241.

[6]- بوبة مجاني، المرجع نفسه، ص: 241.

[7]- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 684.

العلويين[1]، وأخلاق البربر وقد طاف محمد طلبا للعلم والتجربة فزار قرطبة، وبغداد ودمشق والقاهرة وأصبح له في الطريقة الأشعرية إمامة وقدم راسخة[2].

وتاقت نفسه للمزيد من العلوم الشرعية، فقصد المشرق الإسلامي لينهل من منابع العلم، ومصادر دار المعارف، ومهد الحضارات ما يفيده في تحقيق أهدافه، فبدأت رحلته في عام 500هـ فحج وشرع في طلب العلم ودامت رحلته 15 عاما كان لها الأثر المباشر في تشكيل شخصيته والتأثير في آرائه وأفكاره[3].

ومكث في العواصم الإسلامية من أجل التعلم والتتلمذ على العلماء في كل من بغداد والإسكندرية والحجاز[4]، فأتيحت له الفرصة الاتصال بالأشاعرة والمعتزلة،[5] وغيرها من المذاهب، كما أتاحت له رحلته الطويلة، الوقوف على أحوال العالم الإسلامي وأدرك ظروف الانهيار والتدهور التي تعانيها دول وإمارات بلاد الغرب وهذا ما دفعه إلى الطموح في القضاء على أنظمة الحكم الموجودة في المغرب، والتخطيط لإقامة خلافة إسلامية قوية تستولي على أزمة الحكمة لا في البلاد المغربية فحسب بل والعالم الإسلامي كافة[6].

---

[1]– العلويين: هم شيعة ينتمون إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بالولاية والنسب، وكل شيعي هو علوي العقدية تعتمد على أصول شريعة إسلامية وفقا لمذهب الإمام جعفر الصادق. ينظر: يوسف خليل محمد، الأنباء الخفية من الشيعة العلوية، الدار الإسلامية، 1418هـ/1996م، ط1، ص ص: 160–188.

[2]– أحمد شبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، 1963م، ط1، 1966م، ط2، ص: 185.

[3]– علي محمد الصلابي، صفحات من التاريخ الإسلامي (دولة الموحدين)، دار بيارق للنشر، عمان، 1998، ص: 10.

[4]– علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص: 10.

[5]– المعتزلة: أحد الفرق الدينية الي تقول: "أن الإمامة اختيار من الأمة، وأن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه، وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة سواء كان قرشي أو غيره من أهل ملة الإسلام. ينظر: حسن، تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1264هـ، ط7، ج1،ص: 421.

[6]– مراجع عقيلة، المرجع السابق، ص ص: 36–37.

وقامت الدعوة في البداية في السوس ثم أخذت تنتشر في مختلف أنحاء المغرب وكان أول من بايعه تلميذه عبد المؤمن بن علي وأخذت قوة ابن تومرت تزداد ولما استفحل أمره انتقل إلى جبل تينملل حيث تحصن هناك[1].

وسار ابن تومرت إلى بلاد المغرب نحو سنة 550هـ/1117م فنزل طرابلس والمهدية وتونس وقسنطينة، وبجاية، ملالة، تلمسان، فاس، مكناسة، سلا وكان خلال نزوله في هذه المدن يبني المساجد ويلقي الدروس والمواعظ ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر فالتف حوله الطلاب والمريدون[2].

ب- نسبهم:

اختلف المؤرخون في تحديد نسب ابن تومرت، فبعضهم قال بأنه عربي وينتهي إلى نسب الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة من زوجها علي رضي الله عنه، والبعض الآخر يجعل نسبه بربريا صرفا والبعض الآخر يجعله نسبا مختلطا بين البربر والعرب[3].

ورغم أن المهدي لم يتزوج ولم ينجب أولادا فإن بعض المصادر تذكر أنه كانت له كنية هي: "أبو عبد الله"، وهذا الأمر يمكن تفسيره بعادة عربية في تكنية من لا أبناء له بأبي عبد الله، تفاؤلا أو تعظيما، وذكر ابن القطان أنه كما يلقب في صغره حيث كان يقرّأ في المكتب أسفو[4]، أمام ما اشتهر به من لقب المهدي فإنه لم يطلق عليه إلا حينما أظهر

---

[1]- شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)، ط1، 1988، مكتبة أنجلو المصرية، القاهرة، 1988، ط1، ص: 21.

[2]- هشام أبو رميلة، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط1، 1404هـ1984م، دار الفرقان، جامعة النجاح نابلس، 1404هـ 1984م، ط1، ص: 32.

[3]- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص: 7.

[4]- أسفو: معناها بالبربرية الضياء الملازمة أي يقال القنديل في المسجد لقراءة والصلاة. ينظر: عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، دار الغرب الإسلامي، د.ب، 1983م، ص: 246.

المهدية، وبايعه الناس بها[1]، وينتسب ابن تومرت إلى أسرة ذات نسب حسب ابن خلدون، وكان أهل بيته أهل نسب ورباط[2].

والمتتبع لتاريخ ابن تومرت يدرك أنه لم يظهر ادعائه النسبي القرشي دفعة واحدة، بل إنه تدرج في هذا الأمر، حتى يضمن قبول الناس له، فبعد أن اطمأن لقبول دعوته التي تمكنه من اتباعه، وأخذ يشوقهم، إلى المهدي ونسبه ولما قبلوا هذا الأمر ادعى ذلك الأمر لنفسه[3].

وهناك من يرى بأن الموحدون ينتمون إلى طائفة من قبائل العرب المغاربة ، خاصة هرغة ومصمودة وهنتانة وكومية التي تقطن منطقة السوس جنوب، المغرب، دعت هذه القبائل الناس إلى العودة إلى الأصول والتمسك بالقرآن والسنة، ورفض كل ما يسيء إلى عقيدة التوحيد فعرفوا بالموحدين ونشأت دولتهم عن أسس دينية عقدية.

وحققوا مرادهم بتأسيس هذه الدولة المترامية الأطراف بخداع من حولهم بأفكار دينية زعموا أنها من الشريعة الإسلامية وأنها تبعا لأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم.

2- قيام الدولة الموحدية:

بعدما أقنع ابن تومرت مريديه بأفكاره، أخذ يجمع حوله الكثير من الأتباع ويحفزهم إلى الخطوة الموالية ألا وهي نشر هذا المذهب الذي لا مثيل له، والعمل على إزالة كل العوائق التي تعرقل سيره فكان من بين خططه العمل على القضاء على المرابطين.

3- إسقاط دولة المرابطين:

إن صفات البطولة والحماسة التي امتاز بها المرابطون الذين زحفوا إلى الأندلس لم تتوافر في الطبقة التالية لهم، فقد مال الجيل الجديد إلى لين العيش ولذائذ الحياة، فضعف

[1]- عبد المجيد النجار، المرجع نفسه، ص ص: 23-24.

[2]- عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب، دار المعارف، مصر، د.س، د.ط، ص: 45.

[3]- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص: 7.

أمرهم وبدأ الانحلال في دولتهم[1]، وفي النصف الثاني من القرن الخامس هجري انتشر بالشمال الإفريقي مذهب المجسمة الذي يفسر الآيات القرآنية وأطلق هؤلاء المفكرون عن أنفسهم لقب "الموحدين"[2]، أي الذين يعتقدون بوحدانية الله، وكذلك شاع في عهد المرابطين المبالغة في المذهب المالكي، حيث لم يعودوا يرجعون إلى الكتاب والسنة لاستنباط الأحكام، لذلك رأى ابن تومرت ضرورة العودة إلى القرآن والحديث وأعلن بأنهم تخلوا عن المبادئ الإسلامية فأصبح الصّراع العسكري ضروريا لمعالجة الأمر[3].

اتهم الموحدون دولة المرابطين بالانحراف والجمود والتجسيم والانحلال والعجز عن تحرير الأندلس من هجمات المسيحيين[4].

كما قسم ابن تومرت أصحابه إلى طبقات فجعل منهم أهل العشرة وهم المهاجرون الأوائل الذين أسرعوا إلى إجابته ، فساهم الجماعة وأولهم عبد المؤمن بن علي[5]، وعمر بن علي، ومنهم أهل خمسين وهم الطبقة الثانية، وقد كانوا يمثلون قبائل مختلفة من البربر، وتمكن ابن تومرت من تأليف جيش قوي من المصامدة، ثم غزا الموحدون تسع غزوات ولم تكن هذه الغزوات سوى اشتباكات خفيفة مع بعض القبائل للمرابطين وانتصر الموحدون في معظمها وفي سنة 517هـ، تجددت الاشتباكات مع المرابطين ونجح عبد الرحمان بن زجو من الاستيلاء على قلعة تاسغيمونت[6].

كانت أولى غزوات عبد المؤمن بن علي كخليفة موجهة إلى مدينة مراكش فقد هاجمها أياما ثم ارتحل عنها، ويذكر ابن خلدون أن "أولى غزواته في تادلة بواد درعة، وفيها

---

[1]– أحمد شلبي، المرجع السابق، ص: 123.

[2]– ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 226.

[3]– أحمد شلبي، المرجع السابق، ص ص: 184-185-186.

[4]– الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة، د.ب، 1406هـ/1986م، ط2، ص: 205.

[5]– عبد المؤمن بن علي: ينتمي إلى قبيلة كومية وهو عبد المؤمن بن علي بن علوى بن بعلي بن علي بن حسن، بن نصر بن الأمير بن نصر بن مقاتل...وصولا إلى قيس بن عيلان وينتمي إلى قبيلة كومية وهو بربري الأصل وهو خليفة المهدي بن تومرت. ينظر: عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ع3، مكتبة الخانجي، د.ب، 1990م، ط2، ص: 222.

[6]– عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ص: 692-693.

خرج عبد المؤمن من تينملل سنة 526هـ، وفي جيش ضخم قوامه ثلاثون ألف مقاتل، فسار أولا نحو حصن تازاجورت فاقتحمه وقتل واليه[1].

ثم رحل إلى درعة واستولى عليها وفي نفس العام 526هـ استولى على حصن هزرجة، فقد اقتحمه وأحرقه، ومنها سار إلى بلدة جنجال وأضرم فيها النيران وقتل أهلها، ثم سار إلى بلدة أجلاحال وقتل أهلها واستولى على حصن جلاوة وفتح الموحدون حصن تاسغيموت[2] اقتحموه ليلا وقتلوا أبا بكر بن واصول اللّمطي، ثم عاد عبد المؤمن إلى تينملل.

كانت جل الهجمات الموجهة ضد المرابطين انتقاما من الموحدين لقتلاهم أثناء حدوث اشتباكات أو معارك، وكان كلما يتم فتح منطقة ما تزداد قوة الموحدين وتتراجع قوات المرابطين[3].

ويقدم لنا ابن القطان بعض التفاصيل عن حوادث الفترة الممتدة من سنة 528هـ إلى 532هـ، فيقول أن الموحدين اشتبكوا مع المرابطين بقيادة إبراهيم بن يوسف المعروف بابن تاعياشت في معركة هزم فيها المرابطون وقتل قائدهم، ثم ينقل لنا خبر فتح الموحدين لمدينة تارودانت، كما أنهم استولوا على كامل بلاد السوس[4]، وبذلك تفاقمت هجمات الموحدين وكثرت هزائم المرابطين[5].

وفي سنة 537هـ/ 1142م توفي علي بن يوسف وخلفه ابنه تاشفين، فشجع ذلك عبد المؤمن ومن معه من الموحدين على مهاجمة المرابطين، وخاصة أن تاشفين بن علي كان شابا قليل التجربة، وقد مات هذا الشاب صريعا وهو يحارب الموحدين وبموته سقطت وهران وتلمسان، وأخذ بناء دولة المرابطين يتداعى تحت ضغط الموحدين المتوالى عليها، وبعد استيلاء عبد المؤمن على فاس ومراكش وقتله لإسحاق بن علي بن تاشفين مع نفر من أمراء

---

[1]- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص: 101.

[2]- حصن تاسغيموت: وهو حسن منيع يقع فوق الجبل وبه حامية من هزرجة. ينظر: عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 226.

[3]- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص ص: 102-103.

[4]- عبد الله عنان، المرجع نفسه، ص: 226.

[5]- نفسه، ص: 230.

المرابطين، كانت بذلك نهاية الدولة المرابطية وأصبح الموحدون سادة المغرب الأقصى وجزء كبير في المغرب الأوسط[1].

المبحث الخامس: نبذة حول الممالك النصرانية:

شهدت تغيرات سياسية كثيرة وفي فترات ليست بالمتباعدة رافقت حروب الاسترداد وانكماش ملك المسلمين بها واتساع ملك المسيحيين على حسابها من جهة أخرى، فعلى آخر أيام الموحدين كانت مقسمة إلى دول أو إمارات أوردها عبد الواحد المراكشي، وهي مملكة قشتالة وأراغون، ليون ونفار،[2]لكن لم يفصل هذا الأخير في أصولها أو جذورها التاريخية وكيفية تشكلها ولذا يجب علينا أن نبحث في ذلك.

1- الممالك الإسبانية:

أ- مملكة قشتالة:

من أكبر الممالك النصرانية مساحة، تقع شرق الجزيرة جنوبي جبال البرتات،[3] زكانت الممالك النصرانية الأخرى تشعر بالنفور منها لما يدعيه ملوكها من السيطرة الأبدية عليها،[4] ثم أخذت هذه المملكة الصغيرة تتسع شيئا فشيئا على حساب جيرانها المسلمين والمسيحيين

[1]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص: 213-214.

[2]- دريس بن مصطفى، العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب الإسلامي مع دول جنوب غرب أوروبا في الفترة (ق 7-10هـ/ 13-16م)، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه، 2013- 2014م، جامعة تلمسان، ص46.

[3]- جبال البرتات: تمثل فاصلا بين بلاد الفرنجة (فرنسا) وشبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا)، ينظر: مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، تح: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، ط1، 2007، بيروت- لبنان، ص41.

[4]- دريس بن مصطفى، المرجع السابق، ص ص46- 47.

على السواء حتى سيطرت على جميع[1] شبه الجزيرة الإيبيرية،[2] وانقسمت قشتالة إلى ما يقال: "قشتالة القديمة" و"قشتالة الجديدة".[3]

وتقع قشتالة بين "جبال أستورياس" و"بقاية" من الشمال ومملكتي أراغون وبلنسية من الشرق والاسترامادو وليون من الغرب، أما قشتالة القديمة إلى الشمال وقشتالة الجديدة فهي إلى الجنوب.[4]

لقد كانت قشتالة أقوى الممالك النصرانية خاصة في عهد سانشو الذي تسميه، المصادر الإسلامية "شانجة" ومكنته قوته العسكرية من حكم جميع شبه الجزيرة الإيبيرية.

لكن بوفاة الملك سانشو تم تقسيم مملكته بين أبنائه الأربعة فحصل ابنه فرديناند على ملك قشتالة وأشتوريس، وصار بذلك أقوى ملك في شبه الجزيرة الإيبيرية أما إخوته الثلاثة فحصلوا على ممالك صغيرة لا تكاد تعدل ثلث مملكته.[5]

ولا نتغافل عن سبب اختيار الموقع المناسب لهذه المملكة من طرف النصارى فقد اهتموا باختيار الأماكن المناسبة لممالكهم حتى يتداركوا نظرا المسلمين.

لذلك أنشأت هذه المملكة في الشمال خلف القلاع والحصون لتحمي نفسها من المسلمين، وسماها العرب بردوليا وتسميتها تدلنا على أنها مجموعة قلاع متناثرة يحكمها نبلاء كل منهم مسؤول عن حماية ممتلكاته.[1]

---

[1]– أحمد المختار العبادي، المرجع السابق، ص74.

[2]– شبه الجزيرة الإيبيرية: تقع في الجنوب الغربي من أوروبا على مثلث من الأرض يضيق كلما اتجهنا نحو الشرق، ويتسع كلما اتجهنا نحو الغرب وتتصل في الشمال بفرنسا (بلاد الفرنجة) بواسطة سلسلة جبلية تعرف بجبال البرينية (جبال البرتات) وباستثناء ذلك فإن المياه تحيط بها من كل جانب، فالبحر المتوسط يحيط بها من الشرق، والجنوب الشرقي، ويحيط المحيط الأطلسي بها من الجنوب الغربي والغرب والشمال. ينظر: راغب السرحاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة اقرأ، 1432هـ– 2011م، ط1، ج1، ص14.

[3]– شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، المطبعة الرحمانية بمصر، القاهرة، 1355هـ/1936م، ط1، ج1، ص317.

[4]– شكيب أرسلان، المرجع السابق، ص ص317– 318.

[5]– راكة عمر، علاقات الدولة الموحدية بالإمارات الإسلامية والممالك المسيحية في الأندلس، مذكرة لنيل شهادة الماجستير،2013– 2014م، جامعة تلمسان، ص ص18– 19.

ب- مملكة أراغون:

ثاني مملكة في شبه الجزيرة الإيبيرية من حيث المساحة، تقع شرقي الجزيرة الإيبيرية جنوبي جبال البرتات، تألفت من اتحاد ثلاثة أقاليم هي أراغون وقطلونيا ثم ضمت بلنسية سنة 533هـ/1138م، وذلك على يد الكونت رامون برانجير الرابع، أمير برشلونة، ولم يكن الاتحاد بين هذه الأجزاء الثلاثة متينا بسبب تمسك كل منها بقوانينه وعدم رغبته في التخلي عنها في سبيل وحدة المملكة[2].

كانت الممالك تتحد فيما بينها من أجل مصالح مشتركة فتصبح بذلك يد واحدة في وجه المسلمين (عدوها المشترك)، وكانت علاقتها يسودها التوتر تتفق أحيانا وتختلف أحيانا أخرى عندما تتصادم مصالحها.

ثم تلي هذه المملكة ليون والتي لا تقل أهميتها عن سابقتيها.

ج- مملكة ليون:

ثالث الممالك النصرانية، بالرغم من صغر مساحتها، كانت قوية الشكيمة، وحرصها الدؤوب على الاستقلال[3]، اقتحمها العرب 717م[4].

من بين ملوكها فرناندو والذي كان في فترة حكمه مترددا بين محالفة الموحدين ومخاصمتهم، وبوفاة القيصر ألفونسو ريموندس 1157م قسمت مملكته بين ولديه، فحظي الأكبر وهو "سانشو" بملك قشتالة أما الأصغر وهو فيرناندو" حظي بملك ليون[5].

---

[1]- انتصار محمد صالح الدليمي، التحديات الداخلية والخارجية التي واجهت الأندلس جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، 1426هـ-2005م، مجلس كلية الآداب في جامعة الموصل، ص64.

[2]- دريس بن مصطفى، المرجع السابق، ص: 47.

[3]- دريس بن مصطفى، المرجع السابق، ص: 49.

[4]- محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية، الباقية في إسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ط2، ص: 350.

[5]- دريس بن مصطفى، المرجع السابق، ص: 49.

وتسمى المنطقة "ببلاد البشكنس"[1] في المصنفات العربية وعاصمتها بنبلونة[2] استقلت وانفصلت عن قشتالة وفقا لوصية القيصر ألفونسو ريموندیس.

وحد هذه المملكة من الشمال الأشتوريان، ومن الشرق والجنوب الشرقي[3] قشتالة القديمة ومن الجنوب الغسترامادور، ومن الغرب غاليسية وبلاد البرتغال[4].

د- مملكة نفارة:

تقع هذه المملكة في ما وراء الإيبرو حتى غرب البرينية[5]، كانت تتوسط جارتين تتنافسان على الزعامة وهما أراغون وقشتالة، كانت قد اتحدت مع أراغون تحت حكم ألفونسو المحارب ثم انفصلت عنها عند وفاته فأصبحت مملكة مستقلة تحت حكم غرسي ريميز سانشو الكبير[6].

ولم ينته التنافس بين الممالك بوفاة الملك ألفونسو، وإنما كانت العلاقة تتقلب من عقد معاهدات سلمية تارة، وتارة تتكالب فيما بينها وتخترق بنود المعاهدة من أجل تحقيق مصالحها الشخصية، حث كانت كل مملكة تسعى إلى الاستقلال بذاتها ومحاولة السيطرة على أكبر مساحة من الأراضي والنفوذ.

و- مملكة البرتغال:

---

[1]- البشكنس: وهي ثلاث مقاطعات: غيبو، سكوه، بقاية، آلبة وهم أمة مستقلة بنفسها، تسكن إلى الشرق من جبال قنترية على أبواب فرنسا، وأصل اسم هذه الأمة هو الباقسو نقادوس، ومنه اشتق اسمها الحالي "الباسك" أو الباسكس، وكان العرب يقولون لهم الباشكونس، ومنهم من يقيم على حدود نفارا، ومنهم من يقيم في فرنسا، وهم من أشد أمم الأرض استمساكا بقوميتهم واحتفاظا بخصوصيتهم. ينظر: انتصار محمد صالح الديمي، المرجع السابق، ص: 21.

[2]- بنبلونة: هي عاصمة ولاية نفارا أو نبرة أو بلاد البشكنس، تقع على بعد 350 كلم من مدريد على الضفة اليمنى لأحد أفرع نهر، يبرر. ينظر: محمد عبد الله عنان، الأثار الأندلسية، المرجع السابق، ص: 307.

[3]- دريس بن مصطفى، المرجع السابق، ص: 49.

[4]- شكيب أرسلان، المرجع السابق، ص: 320.

[5]- محمد عبد الله عنان، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ط2، ص: 18. 18.

[6]- دريس بن مصطفى، المرجع السابق، ص: 50.

تقع غرب شبه الجزيرة الإيبيرية، تطل على المحيط الأطلسي من الناحية الغربية، ورغم وحدة الرقعة الجغرافية إلا أن أهلها تمتعوا بخواص تتميز عن سائر الإسبان في شرق الجزيرة ووسطها، كانت بينها وبين مملكة ليون مشاكل حدودية ولذلك لم تكن تعرف تخومها الاستقرار والثبات وخاصة من لناحية الجنوبية تبعا لأحداث حركة الاسترداد.

ولهذا ارتأى ألفونسو التاسع أن يرتبط مع ملك البرتغال سانشو الأول برباط المصاهرة، وعقد بالفعل زواج ألفونسو التاسع بالأميرة تريسنا ابنة سانشو سنة 1197[1].

وبالتالي لم تكن العلاقات بين الممالك النصرانية تقتصر على إبرام معاهدات السلم والعداء فقد تجاوزت ذلك إلى المصاهرة من أجل مصالح المملكة.

2- الإمارات الإيطالية:

أ- مملكة البندقية:

تقع شمال شرق إيطاليا، تطل على البحر الأدرياتي، تميزت عن غيرها من الإمارات الإيطالية بالاستقرار ونظام الحكم بها، قائم على مؤسسات تشريعية هامة، كالمجلس الكبير، ومجلس الشيوخ، ومجلس العشرة وكان على رئيس الحكومة الدوق[2]، الذي ينتخب لهذه الوظيفة مدى الحياة ومع ذلك فإن السلطة والنفوذ كانت مرتكزة على الطبقة التجارية التي كانت تجارتها مع بلاد المغرب وخاصة الأوسط والأدنى منه.

ب- جنوة:

تقع في شمال غربي إيطاليا وتقع على سهل ضيق على طول خليج جنوة ومنحدرات الجبال المجاورة وفي القرن الثاني عشرا انضمت إلى الصليبيين، فكونت مستعمرات تجارية

[1]- المرجع نفسه، ص: 51.

[2]- الدوق: بالضم، كلمة ذات أصل لاتيني Doge وتعني الشخص الذي يمتلك أعلى مراتب الشرف والسمو بعد الأمير، وكان يختص بإدارة إقليم أو منطقة معينة بينما تعني الكلمة في العربية، الحمق، والدائق هو الهالك حمقا. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2004، ص: 54.

على طول سواحل الحوض الشرقي للمتوسط، وفي القرن الثالث عشر سيطرت على وسط البحر المتوسط بما في ذلك جزرتا كورسيكا وسردينيا[1].

ج- بيزة:

تقع مدينة بيزة في وسط إيطاليا في إقليم توسكانا وتحديدا في منطقة السهل الغريني فوق ضفاف نهر آرنو ويفصل بينها وبين بحر ليغوري مسافة تقدر بـ 10 كلم تقريبا كما تبعد المدينة بنحو 80 كلم عن غرب فلورنسا، وتعتبر المدينة ذات سهول خصبة بحكم موقعها بالقرب من السواحل البحرية، وتشتهر بوفرة المياه المعدنية.

تشير سطور التاريخ إلى أن بيزة القديمة كانت تعرف ببيساي، وكانت تخضع لحكم الدولة الرومانية وتتخذ منها قاعدة بحرية لها وخلال الفترة ما بين 180 – 313 م أصبحت عبارة عن مستعمرة رومانية بحتة وما يدل على عراقة تاريخ المدينة هو ما تحتضنه من معالم سياحية تاريخية كبرج بيزا المائل[2].

3- أسباب قيام هذه الممالك:

قامت هذه الممالك لعدة أسباب نذكر منها:

- طموح قادة هذه الممالك وتصميمهم على استعادة ما فقدوه من أراض ومحاولة توسيع حدود ممالكهم، الصغيرة على حساب المسلمين بدعم وسند من أمراء وملوك أوربا الذين أفزعهم الخطر الإسلامي[3].

- الخصائص الموقعية للمنطقة التي أقام بها هؤلاء ممالكهم التي امتازت بالحصانة والبعد عن مركز السلطة المركزية في قرطبة.

---

[1]- المصدر نفسه، ص: 55.

[2]- إيمان الجباري، مدينة بيزا الإيطالية https://www.mawdoo3.com/ ديسمبر 2017، على الساعة 1:25 (تاريخ الدخول 18:18 تاريخ الخروج 19:00)

[3]- انتصار محمد صالح الدليمي، المرجع السابق، ص: 64.

– استهانة المسلمين الأوائل بهذه الفئة القليلة من النصارى، وعدم التعامل وأصبحت من القوة بحيث أقدمت على مقاومة النفوذ العربي في الأندلس[1].

– اضطراب الوضع السياسي عند المسلمين مما أتاح ذلك لهم فرصة تكوين وبناء ممالكهم وقوتهم.

– الظرف السياسي تجسد ذلك في التمردات والفتن والحروب الأهلية التي قامت بين العرب والبربر وغيرهم[2].

– كل هذا كان بمثابة الأرض الخصبة لإنشاء ممالكهم دون مواجهة أي خطر يعيقهم.

[1]– المرجع نفسه، ص: 64.

[2]– شاكر مصطفى، الأندلس في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة الجمهورية، العربية السورية، دمشق، 1490هـ، د.ط، ص: 104.

الفصل الأول

الصراع الموحدي النصراني (5هـ- 7هـ)

- المبحث الأول: ظروف موقعة الأرك
- المبحث الثاني: موقعة الأرك (591هـ/ 1195م)
- المبحث الثالث: موقعة حصن العقاب (609هـ/ 1195م)

هدأت الحرب في بلاد الأندلس بضعة سنين، بعد رجوع الخليفة يعقوب المنصور إلى المغرب، حيث قام النزاع بين النصارى في الشمال (أراغون ونفارا) وجيرانهم بفرنسا وصبت كل من ليون والبرتغال اهتمامهم بقرار الحرمان البابوي في حين عمل ألفونس الثامن ملك قشتالة بمحاربة المسلمين.

المبحث الأول: ظروف موقعة الأرك.

استغل ملك البرتغال مرور حملة صليبية ثانوية ببلاده ذاهبة إلى المشرق فاستأجرها لمعونته على احتلال أشبونة التي عدت فيما بعد نواة البرتغال ولم يستردها الموحدون بعد ذلك، لكنهم كانوا أكثر توفيقا مع ملك قشتالة ألفونس السابع الذي توغل بجيشه في الأندلس حتى انتهى إلى قرطبة، فصدوه هناك وأجبروه على التراجع، ونجح التحالف النصراني إلى حين احتلال المرية.[1]

كما أن دولة المرابطين واكبت قيام الحروب الصليبية وكانت لها ثورات مع الموحدين، وقد صارت السيطرة على البحر المتوسط في تلك الفترة لقوى الغرب الفرنجي والنورماندي[2] ولذلك عني المرابطين والزيريون الذين عاصروهم في تونس ببناء الرباطات[3] على السواحل الإفريقية والمغربية دفاعا عنها، أما الموحدون فقد عرفوا كيف يقيمون قوة بحرية تكفي للدفاع البحري ولمتابعة تسيير العلاقات التجارية بين المغرب والأندلس والدفاع عن مناطقها ضد الحركات الصليبية، كما فعلت في حصار المرية سنة 552هـ وفي حصار المهدية سنة 555هـ، كانوا قد احتلوها سنة 542هـ/ 1138م ومع أن جيش الموحدين البري كان عمادهم

---

[1]– شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص104.

[2]– النورمان: هم شعوب آرية من سكان السويد والنرويج والدنمارك وعرفوا المصادر العربية بالأردمانيين وعرفوا بالفايكنج VIKING. ينظر: إبراهيم آل مصطفى، سفارات الأندلس إلى ممالك أوروبا المسيحية الكاثوليكية، مكتبة الثقافة الدينية، 1434هـ/2013م، ط1، ص109.

[3]– الرباطات: من الرباط وهو حصن قوي يقام في الثغور لمواجهة العدو ولعل هذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم لقوله تعالى: "**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ**". ينظر: القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية 60. سعيدون نصر الله، دولة المرابطين في المغرب، والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م، ط1، ص23.

في التوسع إلا أن أسطولهم البحري كان عماد الرباط بين العدو بين تجارة وحرب لذلك جعلوه أقوى أسطول غربي متوسط.[1]

كان عبد المؤمن على عزم غزوة كبرى لدول الشمال النصراني،[2] فأرسل الموحدون جيشا إلى الأندلس سنة 541هـ وذلك من أجل إزالة ما بقي فيها من المرابطين، ولعل في مقدمة الأسباب التي دفعت الموحدين إلى ذلك هو الحفاظ على كيان الإسلام في بلاد الأندلس، إضافة إلى الحفاظ على كيانهم في عدوة المغرب من هجوم مرابطي محتمل من الأندلس.[3]

فقرر عبد المؤمن بن علي إرسال ثلاثة جيوش عبرت سنة 541هـ/ 1146م وسيطرت على مدن الجنوب مثل طريف والجزيرة الخضراء، كما أعلن أهل شريش ولاءهم للموحدين ثم زحفت القوات الموحدية إلى غربي الأندلس فسيطرت على مدن لبلة وبطليوس وشلب وباجة ويابرة حيث أعلن حكامها الولاء للوافد الجديد، إلا أن المهمة التي امتنعت عن الموحدين في غربي الأندلس والتي شددوا عليها الحصار برا وبحرا هي مدينة اشبيلية،[4] إلا أن القوات الموحدية اقتحمتها سنة (542هـ/ 1147م) بعد أن أبيدت بعض القوات المرابطية فيها، وتمردت معظم مدن غربي الأندلس ما عدا شريش على الحكم الموحدي وكان هذا التمرد بزعامة مدينة اشبيلية التي انهزمت فيها القوات الموحدية،[5] ولما وصلت هذه الأنباء

---

[1]– عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر ملوك الطوائف الثاني، دار الغرب الإسلامي، د.ب، 1408هـ/1988م، ط1، ص116.

[2]– شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص106.

[3]– عبد القادر درقلاني، الدولة الإسلامية في الأندلس من الميلاد إلى السقوط، دار الأصالة، د.ب، 1431هـ/ 2010م، ط1، ص ص131– 132.

[4]– اشبيلية: تقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، كانت عامرة بالسكان والعلماء في ظل حكم المسلمين واشتهرت بصناعتها المزدهرة وطبيعتها الخلابة، ينظر: علي إسلام باشا، إسبانيا والأندلس، مدير بنك مصر، الإسكندرية، 2001م، د.ط، ص58.

[5]– عبد القادر درقلاني، المرجع السابق، ص132.

إلى عبد المؤمن بن علي[1] في المغرب أرسل جيش جديدا إلى الأندلس أعلن السيطرة على معظم دول غربي الأندلس، واستطاعت الجيوش الموحدية السيطرة على مدينة قرطبة، بعد تفاهم وتعاون مع حاكم قرطبة ربحي بن غانية المرابطي، الذي فضل التعاون مع الموحدين من أجل التخلص من خطر الإسبان، خاصة ملك قشتالة.[2]

دخلت القوات الموحدية قرطبة سنة 543هـ/1148م ومن قرطبة أخذت ترسل سراياها إلى المدن والحصون المجاورة في وسط الأندلس، فسيطرت على مدينة آبذة وبياسة وسيطرت السرايا الأخرى على حصن شلير وأركشن وبرشانة.[3]

ودخلوا إلى مالقة بعد أن ثار سكانها على حاكمها أبي الحكم بن حسون المتعاون مع الإسبان وبقيت مدينة غرناطة آخر معاقل المرابطين في الأندلس، فحاول يحي بن غانية المرابطي إقناع حاكم غرناطة المرابطي (ميمون بن بدر اللمتوني) بالاستسلام للموحدين، فامتنع بشدة، واستمر في عناده حتى سنة 551هـ/1156م حيث سلم المدينة بعد أن حصل على الأمان من زعيم الموحدين عبد المؤمن بن على، وبعد أن استولى الإسبان على مدينة المرية (452هـ/1157م) ودخلوا في نفس السنة.[4]

وحين داهم الموت عبد المؤمن بن علي سنة 558هـ/ 1163م قام على الحكم ابنه أبو بعقوب يوسف[5] 558- 580هـ/ 1163م-1184م، وحارب الجيش الموحدي في عهده دول الشمال كالقطلانيين لكن معظم معاركهم كانت مع مملكة البرتغال الناشئة في الغرب،

---

[1]- عبد المؤمن بن علي: ينتسب عبد المؤمن إلى أسرة بربرية قروية تنتمي إلى قبيلة كومية إحدى بطون بني فاتن الذين يجتمعون مع قبيلة زناتة في ضرى ابن زجيك وسلسلة البربر البتر، ولد في قرية تاجرا من أعمال مدينة تلمسان ولم يتفق المؤرخون على سنة الميلاد لعبد المؤمن. ينظر: عبد الله بن علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، مصر، د.ت، د.ط، ص82.

[2]- عبد القادر درقلاني، المرجع السابق، ص132.

[3]- نفسه، ص132.

[4]- المرجع نفسه، ص ص132-133.

[5]- أبو يعقوب بن يوسف، وهو أمير المؤمنين عبد الله بن يوسف بن عبد المؤمن لقبه المنصور بفضل الله، أمه أم ولد، ولد بقصر جده عبد المؤمن بمدينة مراكش 555هـ، كنيته أبو يوسف، نقش خاتمه على لله توكلت. ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، د.ط، ص132.

فقد كانت أشد الممالك وطأة عن المسلمين لأنها تقتطع الشواطئ الجنوبية على الأطلسي بين الأندلس والمغرب، استغرقت هذه المعارك وقتا طويلا واضطرت أبا يعقوب إلى بناء التحصينات والقلاع ضد غارات البرتغال على طول الوادي الكبير، وبنا جسرا من السفن عظيما على هذا الوادي لتعبره الجيوش المتحركة من اشبيلية إلى بطليوس المهددة، وحصنت اشبيلية نفسها بصور حصين وأقيمت فيها دار للسفن، ولم تكن المعارك حاسمة بل كانت سجالا بين الطرفين سواءًا البر أو البحر.[1]

وكان لموت أبي يعقوب المفاجئ هزة اضطربت إثرها كل الإمبراطورية،[2] وقد استغلت هذا الوضع القوى المناوئة وأصبحت تهدد الدولة الموحدية من جانب، فواجه يعقوب بن أبي يعقوب يوسف كثيرا من المهام الصعبة في المغرب والأندلس معا، ففي بداية عهده انتهز بنو غانية[3] فرصة وفاة أبيه وخرج أميرهم علي بن إسحاق بن غانية من جزيرة ميورقة قاصدا مدينة بجاية في حشود كثيرة من أتباعه، فاستولوا عليها، وأخرجوا من كان بها من الموحدين.[4]

وفي عهد المرابطين قام بنو غانية بولاية دانية، فامتلكوا جزر البليار ميورقة ومنورقة ويابسة، واستقل محمد بن غانية بحكم هذه الجزر وأقام فيها جاريا على أمر لمتونة داعيا لبني العباس، وخلفه ابنه أبو إبراهيم إسحاق، وفتح بابه لمن وفد إليه من بقايا عناصر المرابطين في الأندلس.[5]

---

[1]– شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص106.

[2]– نفسه، ص106.

[3]– بنو غانية: من قبيلة مسوفة وكانوا يمتون بصلة القرابة إلى ابن تاشفين أمراء المرابطين، وعرفوا ببني غانية على اسم أمهم وأمثال هذه الأسماء كانت عند المرابطين. ينظر: عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، المرجع السابق، ص710. علي محمد الصلابي، تاريخ المرابطين والموحدين، دار المعرفة، بيروت– لبنان، 1430هـ/ 2009م، ط3، ص372.

[4]– عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، المرجع السابق، ص617.

[5]– نفسه، ص716.

وكان انضمام مماليك مصر إلى بني غانية أعداء الموحدين سببا في غضب أبي يوسف يعقوب على صلاح الدين (سلطان مصر) ويبدوا أن ذلك كان سببا من أسباب رفضه لنجدة صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين،[1] وكان هذا انتقاما له لتحالفه مع بني غانية.

وخرج علي بن إسحاق من بجاية بعد أن وطد سلطانه فيها، وهاجم قلعة بني حماد، ثم تمكن علي بن إسحاق من الاستيلاء على كل إفريقية بما في ذلك قفصة وتوزر عدا تونس والمهدية، كذلك استولى على الجزء الشرقي من المغرب الأوسط ابتداء من الجزائر حتى قسنطينة، بما في ذلك مليانة والقلعة، وعلم أبو يوسف في سبتة بذلك عقب عودته من الأندلس،[2] واستمال ابن غانية بعدما تحالف مع قراقوش قبائل بني سليم[3] من العرب ومن جاورهم من برقة، واجتمع إليه أيضا فلول لمتونة من أطراف البقاع، فمضى إلى بلاد الجريد وافتتح كثيرا من مدنها وحصونها وأقام الدعوة العباسية فيها، وافتتح قراقوش قابس، وبلغ ابن غانية أن أهل قفصة خلعوا طاعته، فحاصروها، ظاهره قراقوش في استرجاعها، ثم رحل ابن غانية إلى توزر اقتحمها أيضا، ولما بلغت المنصور هذه الأخبار خرج بنفسه من مراكش سنة 582هـ،[4] وهو عازم على القضاء نهائيا على بني غانية وحلفائهم من العرب والمماليك، واسترجاع نفوذ إفريقية.[5]

فمر في طريقه إلى إفريقية بفاس وتازى وتونس، وأقام بتونس وسيّر من هناك جيشا بقيادة أبي يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، ومعه عمر بن أبي زيد لمحاربة ابن غانية، واشتبك الجيشان وانتصر جيش بني غانية، وقتل ابن أبي زيد وأبو يعلى بن يغمور، وفر فلول الموحدين إلى قفصة ونجى الباقون إلى تونس، فلم المنصور شعثهم

---

[1]– حسين مؤنس، المرجع السابق، ص312.

[2]– عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، المرجع السابق، ص717.

[3]– بني سليم: هم من قيس عيلان، وهم ولد سليم بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان، وإليه يرجع كل سليمي، كانت مواطنهم الأولى في الجاهلية وصدر الإسلام بنجد. ينظر: محمد رجب الزائدي، قبائل العرب في ليبيا، منشورات دار الكتاب الليبي، بنغازي، 1968م، د.ط، ج1، ص57.

[4]– عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، المرجع السابق، ص718.

[5]– يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: محمد عبد الله عنان، المركز القومي للتجرمة، د.ب، د.ب، 2011م، د.ط، ج2، ص586.

وخرج بنفسه لمحاربة علي بن غانية والتقى معه في حامية دقيوش، فانهزم ابن غانية وأفلت بنفسه مع صاحبه قراقوش وتمكن المنصور من استرجاع قابس وتوزر وقفصة، ثم قفل عائدا إلى المغرب.[1]

لهذا لم يتمكن الخليفة الموحدي من منح الاهتمام الكافي للأندلس حتى يتسنى له السيطرة على الأوضاع الداخلية بها.[2]

فخلال انشغاله بقمع الثورات المعادية للنظام الموحدي، انتهز النصارى الفرصة وأخذوا يتحالفون ويعدون الخطط للإطاحة بالموحدين.

والموحدون بدورهم أبدوا استعدادهم لمواجهة الممالك النصرانية، ويظهر ذلك حين قرر ملك قشتالة منذ سنة 585هـ/ 1189م تكثيف غزواته في الأندلس الإسلامية واستعان في ذلك بفرسان رجال الدين، حيث وصلوا بغزواتهم إلى أحواز قرطبة، واشبيلية فغنموا وسبوا وقتلوا كثيرا من المسلمين وفي هذه الأثناء عبر الخليفة يعقوب المنصور بجيوشه إلى الأندلس سنة 586هـ/ 1189م وقرر غزو ملك قشتالة في عقر داره وهنا عرض ملك قشتالة الصلح على الخليفة الموحدي،[3] بل ويعرض عليه أن يحالفه ضد من يشاء من أعداء أبي يوسف وأبناء ملة ملك قشتالة، فقبل مسالمته بما لا يتعارض مع عزة الإسلام والمسلمين،[4] ثم سار إلى مدينتي شلب وقصر أبي دانس فاستردهما وعاد إلى مراكش.[5]

1- حروب الموحدين مع ليون:

لم تقتصر المهادنة والاتفاقيات بين النصارى والمسلمين فقط، بل أبرمت معاهدات بين النصارى في حد ذاتهم لحل مشاكلهم بالتحالف ضد عدوهم المشترك ألا وهو المسلمين

---

[1]- عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، المرجع السابق، ص719.

[2]- مونتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، تر: محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، شارع جان دارك، بيروت- لبنان، 1998، ط2، ص117.

[3]- راكة عمر، المرجع السابق، ص94.

[4]- راغب السرجاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة اقرأ، القاهرة، 1432هـ/ 2011م، ط1، ص586.

[5]- راكة عمر، المرجع السابق، ص94.

وهذا ما تم فعلا عند ملك ليون فرناندو الثاني[1] مع أخيه ملك قشتالة سانشو الثالث في مدينة ساهاجون سنة 559هـ/ 1158م فاتفق الملكان على إقامة السلام بينهما والتعاون معا على جميع أعدائهما ما عدا رامون برانجير الرابع ملك أراغونة واتفقا أيضا على تقسيم مملكة البرتغال بينهما فحصل فرناندو الثاني على حق ضم الأراضي البرتغالية كما يريد، بينما حصل سانشو الثالث على حق اختيار الأجزاء التي يراها مناسبة من مملكة البرتغال فيضمها لمملكته.

كما قررا السير على سياسة والديهما في غزو الأندلس وذلك تجنبا لنشوب الخلاف بينهما حول تقسيم مناطق غزو الأندلس، فانفرد فرناندو الثاني ملك ليون بغزو المنطقة الغربية الواقعة بين مدينتي أشبونة[2] ولبلة، وهي لبلة وبطليوس وشلب ويابرة وماردة[3] وأشبونة، كما كان من حق ملك ليون نصف مدينة اشبيلية، أما سانشو الثالث ملك قشتالة فكان من حقه غزو بقية بلاد الأندلس.

لكن ما نقلته الكتابات أن فرناندوا قبل عقد اتفاقه هذا مع أخيه سانشو الثالث قام بغزو الأندلس، حتى بلغ حصن زغبولة من أحواز اشبيلية، لذلك استدعى أحواز اشبيلية أبو يعقوب يوسف الولاة الموحدين على بلاد غربي الأندلس، فحضروا إليه بقواتهم، ثم سار بهم لقتال ملك ليون، فنشبت موقعة بين الطرفين عند حصن زغبولة، فحلت الهزيمة بالموحدين واستشهد جملة الأشياخ والولاة وأسر من أهل اشبيلية بشر كثير، أما أبو يعقوب يوسف فقد تمكن من الفرار.[4]

---

[1]– فرناندو الثاني: يعرف في الرواية الإسلامية باسم فرناندة صاحب مدينة السطاط وآبلة وليون وسمورة وتطلق الرواية عليه لقب البيوج أي الكثير اللعاب. ينظر: هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص303.

[2]– أشبونة: مدينة غرب باجة، تطل على البحر الظلمات وهي شرق طليطلة. ينظر: الحميري، صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص16.

[3]– ماردة: إحدى مدن ولاية بطليوس تقع شرقي بطليوس على الضفة الشمالية لنهر وادي يانة، وتبعد عن بطليوس نحو أربعين كيلومترا سقطت على يد النصارى بعد سقوط بطليوس بنحو عامين بسنة 1129م/ 628هـ. ينظر: عبد الله عنان، الآثار الأندلسية، المرجع السابق، ص380.

[4]– هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص302.

واتخذ رجال ملك ليون حصن فرنكس الواقع شمالي مدينة بطليوس، قاعدة ينطلقون منها لغزو الأندلس، وقام الموحدون فيما بعد بالاستيلاء على هذا الحصن سنة 555هـ/ 1160م وقتلوا جميع حاميته النصرانية وعندما سمع ليون بذلك أقبل بجيش لنجدة الحصن، فحلت به الهزيمة وفقد كثير من جنده بين قتيل وأسير.[1]

ومن أجل توسيع منافق النفوذ لدى ملك ليون، قام هذا الأخير بإنشاء فرق عسكرية تابعة لجمعيات دينية التي عرفت بحماس شديد اتجاه مقاتلة المسلمين حيث ظهرت الجمعية الأولى سنة 551هـ/ 1156م، عندما اتفق فارسان هما "سويرو" و"جوميث" عل أن يندوا بحياتهما لقتال المسلمين فالتحق بهم الكثير من النصارى والزهاد والأساقفة والفرسان ممن وهبوا أنفسهم لتلك الغاية، وعرفوا بجماعة " سات جولييت دل بربرا" ثم تحول اسمها إلى جماعة فرسان. كما بادر البابا اسكندر الثالث[2] هذه الجمعية.[3]

لم يقف دور البابوية عند هذا الحد بل استعملوا أساليب أخرى تدل على شدة حقدهم على المسلمين لذلك حرّضوا على قيام جمعية أخرى ضمت كبار اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا يعيشون حياة همجية ثم تابوا على يد رجال الدين، هؤلاء احتضنتهم جمعية القديس ياقب، عينوا "بيدو فير تانديز" قائدا لهم، قام فرسان هاتين الجمعيتين بغزو الأندلس وتحقيق عدة انتصارات كما قامت البابوية بمنح هبات وامتيازات لهذه الجيوش مما زاد حماسها من أجل قتال المسلمين.

كانت الممالك النصرانية تبرم المعاهدات مع الموحدين كلما أحست بالخطر أو رأت مصالحها في ذلك، ففي فترة الهدنة أو المعاهدة السلمية تقوم هذه الممالك ببناء قوتها وحصونها من أجل شن هجومها على المسلمين في الوقت المناسب.

---

[1]– هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ، ص303.

[2]– إسكندر الثالث: اسمه الحقيقي أورلاندوا باندلي ولد سنة 1105م بمدينة سينا الإيطالية تولى منصب البابا يوم 7 سبتمبر 1159م بعد وفاة البابا أدريان السادس، واصل الصراع الطويل الذي كانت تفوضه البابوية ضد الإمبراطورية الرومانية، توفي 30 أوت 1181م. ينظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م، د.ط، ص 336.

[3]– راكة عمر، المرجع السابق، ص95.

ففي سنة 553هـ/ 1168م عرض ملك ليون معاهدة سلم مع الموحدين لكن سرعان ما نقضها، سنة 558هـ/ 1173م، عندما عرض قواده وفرسان تلك الجمعيات على غزو أراضي المسلمين، حيث خرج شان مينوش، من مدينة آبلة بقوته إلى جنوب قرطبة أين شن غاراته بها حتى بلغ أحواز اشبيلية.[1]

غنم كلاهما ألف رأس من الغنم وأسر أكثر من مائة وخمسين رجل ثم عاد إلى بلده، ولما علم الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف بهذه الأنباء جهز جيشا من الموحدين وكلفه بملاحقة شان مينوش الأحدب، وكان بقيادة أخي الخليفة "أبو زكريا" فعبروا نهر الوادي الكبير ولاحقوا فرسان شان مينوس حتى أشرفوا على قلعة رياح،[2] فنشبت بينهم معركة دامية هزم فيها المسيحيون وقتل شان مينوش، كما استولى الموحدون على غنائم المسيحيين وفكوا أسرى المسلمين وبعثوا إلى الخليفة يخبرونه بهذا النصر، ففرح لذلك وأثنى على جنده، ودّب الذعر في صفوف النصارى.[3]

وكان الموحدون على أتم الاستعداد لمواجهة أي خطر يداهمهم خاصة من طرف النصارى الذين يتوقعون منهم المكر والخداع والانتقام، وعندها قام ملك ليون بعد عام عاد بغزو الأندلس مجددا، جهر الخليفة أبو يعقوب يوسف، جيشا للرد على غزوات ليون وتأديبه في عقر داره وأمر على هذا الجيش أبا حفص عمر بن عبد المؤمن، فخرج من اشبيلية سنة 570هـ/ 1174م، واسترد كافة الحصون التي استولى عليها الليونيون طيلة ثلاثين سنة، فأثارت هذه الانتصارات الموحدية استياء البابا إسكندر الثالث، الذي ناشد المسيحيين الإسبان على مواصلة قتال المسلمين حيث جعل لكل من يستجيب لندائه مكافأة وهي الغفران والبركة.[4]

---

[1]– هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص305.

[2]– قلعة رياح: مدينة بالأندلس بين قرطبة وطليطلة وهي مدينة حسنة ملكها النصارى في أكثر من خمسون سنة. ينظر: الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص469.

[3]– راكة عمر، المرجع السابق، ص96.

[4]– أحمد بن أبي خالد الناصري السلاوي، الإستقصا، المصدر السابق، ج3، ص135.

وهذا ما سهل الطريق على ملك ليون الذي انتهز هذه الدعوات البابوية، وكذلك عبور الخليفة إلى المغرب فكثف من غزواته على أراضي المسلمين دون أن يحقق نصرا، فقد كان يضرب الحصار على عدة مدن دون أن يدخل إليها ودون أن يخضع المسلمين، فاستمر هكذا إلى أن شارك مع البرتغاليين في معركة شنترين التي هزم فيها الموحدون.[1]

2- حروب الموحدون مع البرتغال:

كانت مملكة البرتغال أكثر الممالك غزوا للمسلمين فقرر الملك سحقها بجيوشه حتى إذا أحرز عليها نصرا أذعنت للمسلمين له الممالك الأخرى، وكانت خطته تقضي بمهاجمة مملكة البرتغال برا وبحرا ثم الزحف عبر نهر التاجة إلى قلب مملكة قشتالة النصرانية، ولكي تنجح هذه الخطة كان يجب الإسراع في تنفيذها كي لا يترك للمسيحيين فرصة من أجل التسليح وإصلاح القلاع وأخذ احتياطات الحصار.[2]

فقصد الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف، بجيشه نحو أشبونة، حاضرة مملكة البرتغال، وكان لزاما عليه السيطرة على القلعة شنترين الواقعة في ضفة وادي التاجة فضرب عليها حصارا تمكن من دخول المدينة بعد ثلاثة أيام إلا قصبتها، فقد احتميت بها الحامية البرتغالية وذلك يوم 22 ربيع الأول 580هـ/ جويلية 1184م، بعدها قام الخليفة أبو يعقوب بتحويل معسكر الجيش من شرق شنترين إلى شمالها الغربي فعارضه القادة الذين عاملهم كجند ينفذون أوامره مما أثار غضبهم،[3] لأنه من طبيعة القائد الموحدي وأخلاقه ومبادئه كخليفة وكأمير المؤمنين أن يعامل القادة بطريقة خاصة وذلك بمشورتهم والأخذ برأيهم في الحروب والمعارك وفي أمور الدولة.

أمر الخليفة بعد ذلك أبو يعقوب ابنه أبا إسحاق التوجه صباحا نحو أشبونة ويهاجمها كي يحمي شنترين من هجوم مباغت وتأمين قواته من أي خطر يداهمهم، ولكن أبا إسحاق بدل من أن يتجه إلى أشبونة صباحا سار ليلا لكن إلى اشبيلية، فخالف بذلك أوامر الخليفة

[1]- هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص310.

[2]- يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج2، ص72.

[3]- المرجع نفسه، ص73.

الموحدي، وفي تلك الأثناء كان سانشو ابن ألفونس هنركيز يتجه ليلا نحو شنترين بجيش قوامه خمسة عشر ألف مقاتل، فلما نفذ الخليفة خاصة بتبديل مواقع المعسكر وجد نفسه وجها لوجه مع قوات البرتغاليين الذين تدعموا في الصباح بقوة أخرى قوامها عشرون ألف مقاتل.[1]

[1]– راكة عمر، المرجع السابق، ص97.

المبحث الثاني: موقعة الأرك:

قبل وقوع معركة الأرك[1] كانت هناك أسباب مهدت إلى ذلك، فأصبحت فيما بعد هذه الموقعة ضرورية لحفظ ماء وجه المسلمين وشرفهم، وكان يعقوب المنصور قد خافه الفنش صاحب طليطلة وسأله الصلح، فصالحه لمدة خمس سنين ولما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها إلا القليل، خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا فسادا، ولما سمع أمير المؤمنين يعقوب المنصور وهو بمراكش، تجهز لقصدهم في جيش كبير من قبائل الموحدين والعرب وعبر البحر إلى الأندلس لمواجهة الفرنج وكتب إلى ولاة الأطراف وقواد الجيوش بالحضور، وخرج إلى مدينة سلا، فاتفق أنه مرض مرضا شديدا، وفي هذه الحال توقف التدبير عن أمر الجيوش وحمل يعقوب إلى مراكش.[2]

ولما كانت غيبة المنصور عن الأندلس بإفريقية اعتراه المرض بها واغتنم العدو الفرصة في بلاد الأندلس طول تلك الغيبة بقتال المسلمين وعاثوا في بلاد المسلمين فسادا وشنوا بها غارات ولم يجدوا بها من ينازعهم ويحاربهم ولا من يصدهم، فسار جيش النصارى حتى نزل بأرض الخضراء، فكتب منها كتابا إلى أمير المؤمنين المنصور يستدعيه للقتال وذلك لما أدركه الإعجاب والغرور والاحتيال، ظنا منه بأنه يمتلك من القوة ما يكفي للإطاحة بالموحدين وإخضاع المسلمين واستغلال هذه الفرصة وهي مرض الخليفة.[3]

ووجهت رسالة إلى الخليفة الموحدي من ملك النصرانية،[4] حيث استفز فيها الخليفة وأتباعه ووصفهم بالضعفاء وبأنهم يزعمون الجهاد في سبيل الله ويقومون بالقتل والعنف.[5]

---

[1]– الأرك: حصن على بعد عشرين كيلو مترا من الشمال الغربي من قلعة رياح، على أحد فروع نهر وادي آنة وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس. ينظر: راغب السرجاني، المرجع السابق، ص588. علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص174.

[2]– أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، ص ص175–176.

[3]– علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، المصدر السابق، ص135.

[4]– المصدر نفسه، ص135. السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص176.

[5]– محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية64– 897هـ/ 683– 1492م، دراسة نصوص وثائق الإسلام، مؤسسة الرباط، بيروت، شارع سوريا، 1406هـ/ 1986م، ط2، ص ص407– 408.

وأن موازين القوى انقلبت ضدهم وأصبحوا ضعفاء لا يستطيعون الدفاع على أنفسهم ولا يستطيعون تجاوز البحر، لذلك اقترح ملك النصرانية على الخليفة الموحدي أن يرسل إليه جملة من عبيده بالمراكب والمسطحات ليجوز ملك النصرانية إليه ليقاتله في أرضه أعز الأماكن إليه،[1] فإن انتصر فهذه غنيمة وهدية مثلت بين يديه،[2] وإن هزم، أصبح الملك بيد النصارى.[3]

وبالتالي كانت هذه الرسالة سهما من النصارى من أجل الاستفزاز والسخرية من الخليفة الموحدي.

قرأ المنصور هذه الرسالة اشتد غضبه واعتبرها إهانة حيث طالبه النصارى بالتنازل عن الحصون فأخذته غيرة الإسلام، وأمر الخليفة بأن يقرأ الكتاب على سائر الموحدين من عرب وقبائل زناتة ومصامدة وسائر الجند كلهم لما سمعوا هذا الكتاب غضبوا غضبة واحدة وقرروا مواجهة النصارى.[4]

ثم دفع المنصور إلى ولده محمد ولي عهده الكتاب وأمره أن يكتب على ظهره[5] قوله تعالى: ﴿**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[6] ثم كتب الجواب ما ترى لا ما تسمع.[7] ثم أمر الخليفة جنده بالتجهز لخوض غمار الحرب وكتب إلى إفريقية وسائر بلاد المغرب يدعوا الناس إلى الجهاد في سبيل الله فالتف جم كبير من الناس حوله من كل صوب، ولما وصل قصر الجواز أخذ في تجهيز الجيوش حيث لا يفرغ من تجهيز طائفة إلا وقد تلاحقت به طائفة أكثر منها.[8]

---

[1]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص135.

[2]– محمد علي الصلابي، المرجع السابق، ص375.

[3]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص408.

[4]– المصدر نفسه، ص135.

[5]– السلاوي، المرجع السابق، ص176.

[6]– سورة النمل، الآية 37.

[7]– محمد علي الصلابي، المرجع السابق، ص376.

[8]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص136.

ودوت صيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب من سلا إلى برقة ضد النصارى الذين غدوا خطرا على الإسلام وفي نفس الوقت الذي سارت فيه جند الغرب النصراني إلى محاربة صلاح الدين واسترداد بين المقدس محاولين رفع الصليب في المشرق.[1]

فتحرك الجيش الموحدي صوب الأندلس فكان أول من جاز البحر قبائل العرب ثم زناتة ثم المصامدة ثم غمارة، ثم المتطوعة من قبائل المغرب وغيرهم من الرماة ثم الموحدين ثم العبيد واستقروا بساحل الخضراء.[2]

عازمين عن الانتقام وإسقاط جميع المدن والحصون وجعله عبرة لمن يتخطى حدود الإسلام والمسلمين، جاز أمير المؤمنين في جيش عظيم من أشياخ الموحدين وأهل النجدة، ومعه فقهاء العرب حيث استقروا بالجزيرة الخضراء،[3] بعد صلاة الجمعة عشرون من رجب 591هـ فأقام بها يوما واحدا فسار هذا الأخير حتى بقي بينه وبين حصن الأرك الذي كان العدو نازلا بإزائه نحو مرحلتين، فنزل بهذا المقر بيوم الخميس ثالث من شعبان، فجمع الناس في ذلك اليوم ووعظهم وذكرهم بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وحثهم على الثبات في أمر الجهاد وهو أمر عظيم الجلل وثوابه الجنة وبعدما حفزهم للجهاد اختص أهل الأندلس بمزيد من المشورة.[4] وذلك إتباعا لسنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وإتباعا لأمره تعالى.

قال تعالى موضحا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾.[5]

كانت بداية مشورته بأشياخ الموحدين ثم بأشياخ العرب وزناتة والقبائل ثم الأغزاز ثم المتطوعة وكل يقول بما يراه في عين الصواب والحكمة ثم اختتم مشورته بقواد الأندلس

[1]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص83.

[2]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص136.

[3]– المصدر نفسه، ص136.

[4]– السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص177.

[5]– سورة آل عمران، الآية 159.

فكلمهم[1] قائلا: "يا أهل الأندلس إن جميع من استشرت قبلكم وإن كانوا أولي بؤس ومعرفة بالحرب، لكنهم لا يعرفون من قتال الفرنج ما تعرفونه،[2] أنتم المجاورون لهم، المدريون على قتالهم، العارفون بخدعهم وأحوالهم،[3] فأشاروا عليه بأبي عبد الله بن صناديد،[4] فقربه إليه وسأله عن كيفية الحرب واللقاء فأجابه ابن صناديد بخطة محكمة ذكية لم يسبق لها مثيل في الحروب والمعارك.[5]

فقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيون في معرفة أفضل الخطط لمحاربة خطط النصارى لأنهم شهدوا مع النصارى حروبا عدة فهم بذلك أعرف الناس بمكائدهم وخططهم،[6] فأشار ابن صناديد أنه يجب أن توضع خطة موحدة لتسيير دقة الحرب وهذا ما فقدته حروب الموحدين في المرات السابقة، خاصة في معركة شنترين، وعلى أمير المؤمنين الموحدي اختيار قائدا عاما للجيش كله يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه، فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه[7] أبو يحي بن أبي حفص،[8] وقد ولى قيادة الأندلسيين لأبي عبد الله بن صناديد وذلك حتى لا يوغز صدور الأندلسيين وتضعف حماستهم حين يتولى عليهم مغربي أو بربري.[9]

فأجاب الخليفة الموحدي ابن صناديد بقوله: "نعم الرأي وفقك الله فيما أشرت".[10]

---

[1]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص136.

[2]– السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص177.

[3]– ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص137.

[4]– السلاوي، المرجع السابق، ص177.

[5]– ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص137.

[6]– محمد علي الصلابي، المرجع السابق، ص175.

[7]– شوقي أبو خليل، الإرك بقيادة أو يعقوب المنصور الموحدي، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، 1989، ط1، ط1، ص55.

[8]– أبو يحي بن حفص: يعتبر من زعماء المصامدة وله مكانة ونفوذ من قبائل المصامدة وهو من خواص ابن تومرت وكان يأتي بعد عبد المأمن في المنزلة عند الموحدين، كان يأخذ برأيه في الحكم. ينظر: محمد علي الصلابي، تاريخ المرابطين والموحدين، ص353.

[9]– راغب السرجاني، المرجع السابق، ص591.

[10]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص137.

ثم دعا الشيخ أبا يحي بن أبي حفص وكان أكبر وزرائه، وكان بنو حفص[1] في الموحدين أهل الفضل والتقى والدين، وتقدم بقبيلة هنتانة وقدم بين يديه القائد ابن صناديد بعساكر الأندلس وحشودها وعقد لجرمون بن رباح على جميع قبائل العرب، وعقد لمزيل المغراوي على قبائل مغراوة، وعقد لأبي محيو بن أبي بكر على جميع قبائل مرين، وعقد لبر بن يوسف على قبائل عبد الوادي وعقد لعبد العزيز التاجني على قبائل تجين، وعقد لتلجيز على قبائل هسكورة، وسائر المصامدة، وعقد لمحمد بن منقافد على قبائل عمارة وعقد للحجاج أبي حزر يخلف الأوربي على المتطوعة، والكل تحت طاعة يحي بن أبي حفص.[2]

وإتماما لهذه الخطة فقد جعل الجزء الأول من الجيش النظامي الموحدي ومن الأندلسيين، فجعل (أمير الجيش أبو يحي) عسكر الأندلس في الميمنة وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في الميسرة، وجعل المتطوعة والأغزاز[3] والرماة في المقدمة وبقي هو في القلب في قبيلة هنتانة،[4] وعند اكتمال الحشد وتسوية أمور الجيش أرسل الأمير الموحدي رسالة في صبيحة يوم المعركة مع القائد العام الوزير أبو يحي[5] يقول فيها: "إن أمير المؤمنين يطلب إليكم أن تغفروا له، فإن هذا موضع غفران وأن يتغافروا فيما بينهم، وأن يطيبوا نفوسهم وأن يخلصوا نياتهم لله تعالى".[6]

فبكى الناس جميعهم، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم، وعلموا أنه موقف وداع، وفي تلك الموقعة تموقع النصارى في أعلى تل كبير وكان على المسلمين أن يتقاتلوا من أسفل

---

[1]– بنو حفص: يعود نسبهم إلى عمر بن الخطاب كابن نخيل، الذي يعتبر أول كاتب لديوان الدولة الحفصية، وانفصاله الرسمي عن الموحدين كان في 626هـ/ 1229م. ينظر: علي محمد الصلابي، تاريخ المرابطين والموحدين، ص353.

[2]– السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص177.

[3]– الأغزاز: يعتبر الأغزاز قسما من جيش المرابطين وليس هناك إشارة إلى أن المغرب عرف الأغزاز قبل الموحدين. ينظر: عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، د.س، د.ط، ص220.

[4]– هنتانة: تعتبر من أهم قبائل المصامدة، ومن أكبر قبائل البربر على وجه العموم مواطنها بجبال درن بمراكش، أنظر: علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص253. وابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص226. السلاوي، المرجع السابق، ص189.

[5]– راغب السرجاني، المرجع السابق، ص951.

[6]– محمد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص409.

التل، ونزل القشتاليون[1] حيث تحرك من جيش العدو عقدة كبيرة من سبعة آلاف فارس إلى ثمانية آلاف فارس كلهم قد تحجب بالحديد والبيضات والزرد النظيف فدفعت نحو عسكر المسلمين، فوصلت إلى أن نظمت أطراف رماح المسلمين، ثم تقهقروا قليلا ثم عادوا بالحملة فعلوا ذلك مرتين، ثم تهيئوا للدفعة الثالثة،[2] ثم خرج جرمون بن رباح يمشي في صفوف المسلمين ويحضهم على الثبات والصبر.[3]

قائلا: "معشر المسلمين اثبتوا في مصافكم واخلصوا لله تعالى واذكروا الله في قلوبكم"،[4] ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده الموثبة إلى القتال وكانت قلعة الأرك تحمي تحمي موقعه من جانب، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة، كان الجيش القشتالي يحتل موقعا عاليا، وكانت هذه ميزة له في بدأ القتال.[5]

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة واندفعت إليه تحاول اقتحامه على إثر كلمات قائدها الملتهبة،[6] انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع على المسلمين كالسيل، ورد المسلمون على هجمات القشتاليين مرتين ولكن العرب والبربر استنفذوا جميع قواتهم لرد هذا الهجوم، فلما عززت صفوف القشتاليين بقوى جديدة، هجموا للمرة الثالثة، وضاعفوا جهودهم،[7] فدفعت النصارى إلى القلب الذي فيه أبو يحي، ظنا منهم أنه أمير المؤمنين فقاتل قتالا شديدا حتى استشهدوا واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتانة والمطوعة وغيرهم ممن ختم الله عليه بالشهادة،[8] واعتقد النصارى أن النصر قد لاح لهم بتحطيم قلب جيش الموحدين.

---

[1]– راغب السرجاني، المرجع السابق، ص591– 592.

[2]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص139.

[3]– السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص178.

[4]– المصدر نفسه، ص187.

[5]– محمد الصلابي، المرجع السابق، ص178.

[6]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص86.

[7]– محمد الصلابي، المرجع السابق، ص179.

[8]– ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص139.

ولكن الأندلسيين وبعض بطون زناتة وهم الذين يكوِّنون الجناح الأيمن، هجموا بقيادة أبي عبد الله بن صناديد على قلب الجيش النصراني الذي كان يقوده ملك قشتالة بنفسه، ويحيط به عشرة آلاف فارس منهم فرسان الداوية وقلعة رياح،[1] ودارت بينهم معركة حامية واستبدل المسلمون النقص في العدد بالإقدام والشجاعة، وعندما زحف زعيم الموحدين في قواته ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطرهم إلى الفرار في غير انتظام، لم يغادر ألفونسو وفرسانه[2] ذلك لأنهم تحالفوا بالصلبان ألا يفروا حتى لا يتركوا من المسلمين إنسانا، قصد الله الله وعده للمسلمين وانكسرت شوكة النصارى فولوا الأدبار وفروا إلى الربوة ليعتصموا بها فوجدوا عساكر المسلمين قد حالوا بينهم وبينها[3] فرجعوا على أعقابهم في الوطء، فرجعت عليهم العرب والمطوعة وهنتانة والأغزاز والرماة فطحنوهم طحنا وانكسرت شوكة النصارى وأسرعت طائفة من العرب إلى أمير المؤمنين وقالوا له: قد هزم العدو، فضربت الطبول ونشرت الرايات وارتفعت الأصوات بالشهادة.[4]

وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على بقية النصارى الفارين من الحرب، فنفذ إلى قلب فرسان النصارى، ولم يشأ ألفونسو أن ينقذ نفسه بالفرار رغم اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، وتساقط معظم فرسان النصارى ولكن بقي القليل منهم استطاعوا أن يلوذوا بالفرار.[5]

ودخل المسلمون الحصن بالسيف عنوة وأضرموا النيران في أبوابه واحتووا على جميع ما كان فيه من الأموال والذخائر والأرزاق والأسلحة والدواب وقتل في هذه الغزوة من النصارى مالا يعد ولا يحصى، وأخذ من حصن الأرك من زعماء الروم أربعة وعشرون ألف فارس أسرى، فأمتن عليهم أمير المسلمين وأطلق سراحهم، فعز فعله ذلك على جميع الموحدين وكافة المسلمين، وحسبت له تلك الفعلة سقطة من سقطات الملوك وكانت هذه الغزوة العظيمة يوم الأربعاء 2 شعبان 591هـ، والتي توجت بنصر المسلمين وانكسار شوكة

[1]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص86.

[2]– محمد الصلابي، المرجع السابق، ص179.

[3]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص139.

[4]– المصدر نفسه، ص140.

[5]– محمد الصلابي، المرجع السابق، ص180.

النصارى المسيحيين،[1] وعاد المنصور إلى اشبيلية يشرف على تنظيم أمور المسلمين ويدعوا كل من له مظلمة أن يرفعها لأمير المؤمنين، ويقسم الغنائم التي غنمها من الحرب على جنده ليستغني الناس وتتحسن أوضاعهم المعيشية، كما أتم بناء مسجدها الكبير، كما بعث عددا من السرايا إلى جيوب العدو وبعث جندا ليخضعوا قلعة رياح وقد وصلت قوة منهم إلى طليطلة وأقامت بها أياما ولم يجربوا فتحها،[2] وذلك سنة 592هـ فحاصروها وضيقوا على النصارى وقطعوا مائها وأحرقوا رياضها ونصبوا عليها المجانيق.[3]

دام هذا الحصار عشرة أيام محاولا اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحبا جنوبا بسبب نقص التموين بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك فدب المرض بين صفوف الموحدين وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعد أن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيئ لاحتلال طليطلة.[4]

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها وساعده على ذلك موقعه القوي، ولذلك استجاب لطلب ملك نفارا وليون وعقد معهم حلفا واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة 592هـ/ 1196م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه، ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة.[5]

نتائج معركة الأرك:

ترتب عن نجاح معركة الأرك آثار ونتائج لم تكن في الحسبان فمن بينها:

---

[1]– السلاوي، المرجع السابق، ص178.

[2]– طارق السويدان، الأندلس التاريخ المصور، شركة قرطبة للإنتاج الفني، الكويت، ربيع أول 1426هـ، أفريل 2005م، ط1، ص363.

[3]– ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص193.

[4]– الصلابي، المرجع السابق، ص186.

[5]– شوقي خليل، المرجع السابق، ص65.

– انهزام النصارى حيث خسروا معظم جيشهم بين القتل والأسر، ففي اليوم الأول فقط قتل منهم حوالي ثلاثون ألفا، ويذكر المقري أن عدد قتلاهم وصل إلى ستة وأربعين ألفا ومائة ألف قتيل من أصل خمسة وعشرون ألفا ومائتي ألف مقاتل، وكان عدد الأسرى بين عشرين وثلاثين ألف أسير،[1] وقد منَّ عليهم المنصور بإطلاق سراحهم بغير فداء، وإظهارا لهم لعظمة ورحمة الإسلام ورأفة بهم[2] وهكذا رسمت معركة الأرك سقوط هيبة ملوك النصارى أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله.

– تحقيق النصر المادي، حيث حصد المسلمون جراء هذه المعركة العظيمة غنائم لا تحصى وأموال ضخمة، حيث بلغت حسب ما قدره المقري حوالي ثمانين ألفا من الخيول، ومائة من البغال ومالا يحصى من الخيام.[3]

وقام المنصور بتوزيع هذه الأموال الضخمة وهذه الغنائم كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوزع على الجيش أربعة أخماسها، واستغل الخمس الباقي في بناء مسجد الجامع الكبير في اشبيلية، تخليدا لذكرى الأرك، وأنشأ له مئذنة شامخة يبلغ طولها مائتي متر، كانت من أعظم المآذن في الأندلس في ذلك الوقت.[4]

وكذلك ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك والدمار من قبل النصارى الإسبان.[5]

ونتيجة لهذه الموقعة حدثت صراعات شتى بين ليون ونافار من ناحية وبين قشتالة من ناحية أخرى، فقد ألقى عليهم ألفونسو الثامن مسؤولية الهزيمة وأيضا وقعت لهم هزيمة[6] نفسية وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وأبعادهم.[7]

---

[1]– راغب السرجاني، المرجع السابق، ص596.

[2]– ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص228.

[3]– علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص183.

[4]– راغب السرجاني، المرجع السابق، ص596.

[5]– على محمد الصلابي، المرجع السابق، ص183.

[6]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص95.

[7]– علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص183.

وأيضا كان من نتائج موقعة الأرك أن تمت معاهدة جديدة بين قشتالة والمسلمين على الهدنة ووفق القتال مدة عشر سنوات، وآراد المنصور هو الآخر أن يستعد لغزو مملكة قشتالة، فاستدعى إليه الحشود والجنود، لذلك رأى ملك قشتالة أن يعقد الصلح مع الموحدين، حتى يتفرغ لقتال ملك ليون وملك نبرة، فأخذ يبعث سفراءه إلى اشبيلية بطلب عقد معاهدة سلم ومهادنة.

المبحث الثالث: موقعة العقاب.

1- الأسباب:

أ- أسباب داخلية:

بعد وفاة يعقوب المنصور، بويع ابنه محمد الملقب بأبي عبد الله الناصر لدين الله،[1] وفي ظل هذه الظروف قوي أمر يحي بن إسحاق المسوفي، المعروف بابن غانية بإفريقية، واستولى على أعمال قراقوش حاكم طرابلس، وعلى مهدية وتغلب على بلاد الجريد وافتتح تونس 599هـ بعد حصار دام أربعة أشهر،[2] فاضطر محمد الناصر مثل أسلافه السابقين إلى إخماد هذه الثورة التي تهدد استقرار الدولة الموحدية.[3]

وفي سبيل استعادة الوضع إلى ما كان عليه اضطر الناصر إلى توجيه جل طاقته للقضاء على ثورات بني غانية فخاض معهم حروب ومعارك كثيرة.[4]

غير أن خطرهم لم يزل نهائيا بل أصبح أحيانا يهدد تلمسان وسجلماسة، كما أن الوضع بالمغرب الأقصى لم يكن جيدا، حيث قام الناصر بتأديب بعض القبائل العربية بإقليم تامسنا، بالإضافة إلى ذلك لقد قامت بعض القبائل بالالتفاف حول الثائرين مما ضاعفت نفوذهم وخطرهم على الدولة الموحدية.[5]

وقام الخليفة الموحدي بإضعاف دور رجال الدولة من الأشياخ، وتطورت العلاقات بينه وبين موظفيه في الاتجاه السلبي منذ عودته من حملته الإفريقية سنة 604هـ، حيث عاقب عاملي فاس ومكناسة وصادر أموالهما، كما شملت العملية أشخاصا آخرين بالمغرب

---

[1]- يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص105.

[2]- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح وتع: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، 1954م، دط، ج2، ص191.

[3]- يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص105.

[4]- راغب السرجاني، المرجع السابق، ص607.

[5]- أحمد عزاوي، رسائل موحدية، مجموعة جديدة (القسم الأول)، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 1416هـ/1995م، ج1، ص175.

والأندلس لاكتشاف سوء تصرفهم المالي بعد أن حاسبهم وتفقد سجلاتهم، ثم قام بإحداث تغييرات في الجهازين الإداري والمالي ونقل الوزارة إلى ابن جامع، كما اكتشف بعد ذلك أن مخازن الدولة فارغة والتي تعد منطقة تموين للجيوش فأصيب المعسكر بالغلاء والمجاعة، مما دفع الناصر إلى معاقبة عاملي فاس وسبتة وأعوانهما المسؤولين عن منطقة الشمال الغربي للمغرب الأقصى، وكلّف بذلك شيخ أبا محمد بن أبي علي ابن مثنى الذي كان مستبدا برأيه على الناصر حيث كان يستشيره في كل أمر وبالتالي توتر العلاقة بين الناصر وكبار موظفيه وأعوانهم من الأشياخ أصبحت نقطة سلبية أدت إلى ابتعاد الأشياخ عن الناصر حيث لم يحضوا بنفس المكانة والأهمية من المشورة التي كانت لهم أيام خلافة أبيه وهذه العلاقة سيكون لها دورا سلبيا في معركة العقاب.[1]

ومن الجوانب السلبية المؤثرة على مصير المعركة أيضا توتر العلاقة بين الوزير ابن جامع مع قواد الأندلس، فهؤلاء لم تعد لهم تلك المكانة الاستشارية التي مارسها المنصور معهم قبيل معركة الأرك، بل إن ضياع قلعة رياح لصالح النصارى بعد طول حصارهم لها جعلت الناصر بمشورة وزيره[2] يقتل قائد القلعة الأندلسي دون أن يسمح له بالدفاع عن نفسه[3] وهذا الفعل يدل على ضيق أفق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوي صفوها ووحدتها في صفوف الأعداء،[4] وهذا ما أثار غضب الأندلسيون وسخطهم على الخليفة ورجال الدولة الموحدية وخاصة وزيره المستبد أبي سعيد بن جامع.

ثم إن طول المدة الزمنية الفاصلة بين جواز الجيوش إلى الأندلس في نهاية 607هـ وبين معركة العقاب في صفر 609هـ ساعدت على إضعاف الروح المعنوية التي دخلت بها إلى الأندلس.

---

[1]– أحمد عزاوي، المرجع السابق، ص ص175– 176.

[2]– المرجع نفسه، ص176.

[3]– راغب السرجاني، المرجع السابق، ص612.

[4]– محمد الصلابي، دولة الموحدين، ص209.

وهناك من يلقي اللوم على الناصر لاشتغاله في الحصار شلبطرة التي طال حتى قلت المؤن في المعسكر، كما أن قلة المؤن لم تكن مرتبطة بهذا فقط وإنما هي عامة ويكون سببها سوء تصرف العمال كما جرى بالمغرب.[1]

وبالنسبة لحصار شلبطرة،[2] فإنه ابتدأ في شهر صفر سنة 608هـ، وكان القتال حوله شديدا لمناعة الحصن حتى تمكن الناصر من الاستيلاء عليه أو التصرف منه بعد واحد وخمسون يوما من الحصار، وهكذا فإن بقية سنة 608هـ، كانت فترة استعداد من الطرفين الإسلامي والنصراني لخوض المعركة الفاصلة، ولكن بمعنوية ضعيفة لدى المسلمين.[3]

ب- أسباب خارجية:

كانت اسبانيا النصرانية سوى مزيج مضطرب من العناصر المتخاصمة، وكان من المحقق يومئذ أن تنطوي شبه الجزيرة كلها تحت سلطان الموحدين لو أن محمد خليفة يعقوب مضى في الحرب بمثل ما كان عليه أبوه من الذكاء والقوة والمقدرة على انتهاز الفرص، ولو أنه استغل فرصة منازعات ملوك النصارى وتوصلهم إلى محالفة الضعفاء منهم لاستطاع المسلمون فرض سيطرتهم على شبه الجزيرة الإيبيرية بأكملها، ورغم كل ما بذله ألفونسو الثاني ملك أراجون والبابا سلستان الثاني من جهود التوفيق بين الأمراء الإسبان وجمع كلمتهم إلا أن هذه الجهود باءت بالفشل حيث كانت الخصومة على أشدها بين الملكين (ملك قشتالة وليون)، حيث نسب ألفونسو هزيمته إلى تقاعد الجيش الليوني عن إمداده، وترتب عن هذه الخصومات حرب وصراع.[4]

وكان لابد لهم من تجاوز هذه النزاعات فيما بينهم والعودة إلى التفاهم والإتحاد فيما بينهم حتى لا تسقط إسبانيا في أيدي المسلمين، حيث كان الشقاق بين الممالك النصرانية (قشتالة، ليون، أراجون، ونفارا)، فعقد ملك قشتالة وليون الصلح بتزويج ابنته برنجيلا من

---

[1]- أحمد عزاوي، المرجع السابق، ص177.

[2]- شلبطرة: تقع على مقربة من قلعة رياح. أنظر: هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص279

[3]- أحمد عزاوي، المرجع السابق، ص177.

[4]- يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص94.

ملك ليون ألفونسو التاسع، فتنازل الملك عن المدن والحصون التي استولى عليها كمهر ابنتهما في عام 604هـ/ 1207م.[1]

كما عقد معاهدة صلح بين قشتالة ونبرة ونفارا في اجتماع وادي الحجارة،[2] حيث تم تحقيق السلم والتحالف بين نبرة وأراغون كما تحالفت قشتالة والبرتغال واتفق الجميع على غزو الأندلس والتعاون على قتال الأندلس وإحلال السلم الداخلي بين النصارى.[3]

وهذا الجو بين الممالك الإسبانية شجع قشتالة على عدم تجديد الهدن مع الموحدين بل نقضتها سنة 607هـ وذلك لأن التحالف فيما بينهما أكسبها قوة تستطيع رد خطر المسلمين فلولا هذا التحالف للجأت إلى سياسة عقد معاهدة الصلح والمهادنة مع الموحدين لرد خطرهم.

وفي نفس السنة الأخيرة من الهدنة أي سنة 607هـ، توجهت جهود الناصر الموحدي نحو حصن شلبطرة لفتحها، وبعد فتحها عاد إلى اشبيلية، فكانت بقية هذه سنة 1211م مهلة واستعدادا من الطرفين الإسلامي والمسيحي لخوض المعركة الكبرى.[4]

2- ظروف معركة العقاب:

أ- المرحلة الأولى:

تركت معركة الأرك آثارا عميقة في نفوس النصارى وخصوصا الثامن ملك قشتالة الذي لم يستطع نسيان مرارة الهزيمة، فأخذ هذا الأخير يحصّن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية تحصينا قويا عام 1209م، ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين لأن من طبيعة النصارى إبرام المعاهدات في مرحلة شعورها بالخطر، والخوف على ممالكها فتلجأ في هذه الظروف إلى عقد معاهدة صلح لحماية مصالحها من الهلاك

[1]- هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص274.

[2]- وادي الحجارة: كان هذا الاجتماع في سنة 1207م (603- 604هـ)، لمدة خمسة سنوات. أنظر: أحمد عزاوي، المرجع السابق، ص175.

[3]- معمر الهادي محمد القرقوطي، جهاد الموحدين في بلاد الأندلس، دار هومة، الجزائر، 2005، د.ط، ص549.

[4]- أحمد عزاوي، المرجع السابق، ص ص178- 179.

وتقوم ببناء قوتها في ظل سريان هذه الهدنة وتنقضها عندما تصبح قادرة على شن الغارات عن الحصون الإسلامية، لذا لم يكد الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نفارا وأراغون، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند لمحاربة المسلمين وبهذا يكون قد مسح وصمة الأرك بإحراز نصره على المسلمين.[1]

وبتحالف النصارى أصبحوا جبهة واحدة، ودعم البابا أنونست الثالث جموع صليبية وباركها لنصرة الصليب في الأندلس، تكونت هذه الجموع من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وشرع النصارى الحاقدون على إحراق الزروع والحقول ونهب القرى وقتل السكان.[2]

ويذكر السلاوي أن الأخبار اتصلت بالناصر وهو بمراكش أن الفنش قد نكّل بنفور المسلمين وعاث فيها فسادا، فغضب الخليفة لذلك وكتب إلى الشيخ أبي أحمد عبد الواحد بن أبي حفص صاحب إفريقية يستشيره في الغزو، فأبى عليه ذلك، لكن المنصور استبد برأيه وخالفه، ففرق الأموال على القواد والأجناد وكتب إلى جميع بلاد إفريقية والمغرب يدعوا المسلمين إلى الجهاد، فأجابه خلق كثير وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجل، فقدمت إليه الجيوش من سائر الأقطار، فخرج المنصور من مراكش في 19 شعبان 607هـ فانتهى إلى القصر المجاز فأقام به وشرع في إجازة الجيوش من أوائل شوال إلى أواخر ذي القعدة سنة 607هـ، فتلقاه هناك قواد الأندلس وفقهاؤها ورؤسائها وأقام بطريق ثلاثة أيام ثم توجه إلى اشبيلية رفقة جيش عظيم.[3]

حيث اجتمع الناصر في هذه الغزوة من أهل المغرب والأندلس ستمائة ألف مقاتل، فأعجب الناصر بكثرة جنده وأيقن بالظفر وقسم الناس إلى خمس فرق:[4]

1- الجيش الأول من القبائل البربر.

---

[1]- شوقي أبو خليل، معركة العقاب، دار الفكر، 1989م، ط1، ص23.

[2]- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص397.

[3]- السلاوي، المرجع السابق، ص191.

[4]- السلاوي، المرجع السابق، ص191.

2- الثاني من جنود المغاربة.
3- الثالث من الجنود الموحدية النظامية.
4- والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة.
5- أما الخامس فهو جند الأندلس.[1]

وأمر كل فرقة أن تنزل ناحية، واهتزت جميع بلاد الفرنج لجوازه، وتمكن الرعب من قلوبهم، فأخذوا في تحصين بلادهم وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم، وكتب إليه أكثر أمرائهم يسألونه السلم ووفد عليه منهم ملك بنبلونة مستسلما خاضعا طالبا للصلح، فعقد له الخليفة الصلح، ثم خرج الناصر من إشبيلة غازيا بلاد قشتالة في أوائل صفر 608هـ فسار حتى نزل حصن سلبطرة[2] وأدار به الجيوش ونصب عليه أربعين منجنيقا فهتك أرباضه وأقام على هذا الحصن ثمانية أشهر فغنيت فيها أزواد الناس وجلبت عليهم الضعف والوهن، فقلت عزائمهم وانقطعت الأمداد، وبما شغل أمر الحصن خاطر المنصور عزم على النهوض عنه، فأشار عليه ابن جامع بأن لا يتجاوزه حتى يقتحمه، وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء،[3] وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ويرغم الموحدين على دفع الحصار، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل، وفجع ألفونسو بفقده لولده الذي قاد الجيش لإنقاذ الحصن، وسقطت قلعة سلبطرة بيد الموحدين بسبب الجوع الذي حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين.[4]

وهذا ما أثار حفيظة النصارى وتحرك الرهبان إثر ذلك يجمعون حولهم الشعوب النصرانية من جنوب فرنسا وغيرها من أجل نصرة صليبهم، فأخذوا يغفلونهم ويعدونهم بالمغفرة التامة.[5]

---

[1]- علي محمد الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، المرجع السابق، ص397.

[2]- حصن سلبطرة: وهو حصن منيع وضع على قمة جبل وقد تعلق بأكتاف السحاب ليس له مسلك إلا من طريق واحد، في مضايق وأوعار. أنظر: السلاوي، المرجع السابق، ص192.

[3]- السلاوي، المرجع السابق، ص ص191- 192.

[4]- شوقي أبو خليل، حصن العقاب، المصدر السابق، ص26.

[5]- المصدر نفسه، ص28.

واجتمعت في مملكة قشتالة مالا يحصى من الجنود النصارى المتعطشين لسفك دماء المسلمين، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش.[1]

كي لا يهاب الجند بنقص المدد وذلك لفخامة الجيش الذي تعداده ما بين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة القائد القشتالي "بيفولوبين دي هارو"، ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة ومطران بورد و"برادل" وأسقف نانت.[2]

وكان الجيش الثاني بقيادة بيدرو الثاني وهو مؤلف من الأرغوانيين والقطلونيين فقط مع فرسان الداوية، أما الجيش الثالث وهو أضخم الجيوش الثلاثة ويتألف من جنود قشتالة ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان الأمير الليوني "سانتو فرناندیز" والأمير البرتغالي "بيورون" و"رودريك" مطران طليطلة وخمسة أساقفة أخرى في حين تفيدنا عدد من الروايات عدد فرسان هذا الجيش بثلاثين ألفا،[3] ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدهم الضخم الكبير[4] وسارت جميع الجيوش النصارى وافترقت حدود الأندلس.

وفي اليوم الخامس، بدأ السير من طليطلة في الرابع والعشرين من جوان 1212م، فهاجم الهاربون الوافدون "حصن مجلون"، وقتلوا جميع من فيه، ولكن المؤن أخذت في النقص وأخذت حرارة الجو ترهقهم، فبدا وكأن حماستهم خبت على إثر هذا المجهود الأول، وفكر الكثير منهم في العودة إلى الوطن، وكان ملك قشتالة أول من قدم إلى مجلون في اليوم التالي، فهدأ روعهم بتوزيع المؤن الوفيرة عليهم واستطاع أن يقنعهم بالسير معه إلى قلعة رياح[5] وكانت بها حامية قوية من الموحدين، ولقي النصارى أثناء عبور وادي يانة الذي تقع بجواره المدينة صعوبات جمة، إذ كان المسلمون قد انتشروا على جانب وادي الصنابير والخوارق الحديدية.[6]

---

[1]– علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص ص398– 399– 400.

[2]– علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص399.

[3]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج2، ص112.

[4]– محمد الصلابي، المرجع السابق، ص400.

[5]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج2، ص ص112– 113.

[6]– محمد الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص400.

فلما عبروا النهر حاصروا القلعة التي كانت تتميز بمناعتها الطبيعية بوقوعها جنوبي النهر، إذ تتمتع بأسوار وأبراج في منتهى المناعة فشددوا الحصار ثلاثة أيام وتتفق روايات المسلمين والنصارى على تفاهم الطرفين وتسليم القلعة ومنح الأمان لحاميتها وتركها ترحل إلى بلادهم.[1]

وقبل تسليمها كان أبو الحجاج يوسف بن قادس "من قواد الأندلس وزعمائها" يبعث برسائل لأمير المؤمنين الناصر يعلمه عن حاله، وهو في حصن "سلبطرة" وكان الوزير ابن جامع إذا وصلت إليه كتب ابن قادس أخفاها عن الخليفة الناصر وفي ظل هذا الحصار فني مكان عند ابن قادس من أقوات وسلاح فسلم له الحصن وخرج المسلمين آمنين على أنفسهم واستولى ألفونسو على قلعة رياح.[2]

وكان خروج الأنفونش من مدينة طليطلة في جموع ضخمة على قلعة رياح، خرج عن الأنفونش جموع كبيرة من الروم من أجل قتل المسلمين فمنعهم الأنفونش، فغضبوا لذلك قائلين: "أجئت بنا لتفتح البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين، ما لنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه".[3]

وعلى إثر هذا الغضب تخلى عنه خمسون ألف مقاتل وعادوا إلى بلادهم رغم محاولات ملك قشتالة التفاهم معهم إلا أن ذلك باء بالفشل بينما بقيت معه كل القوات الأخرى، وفي هذه الأثناء وصل ملك نافار بقواته وانضم إليه.[4]

وفي الوقت نفسه سار يوسف بن قادس برجاله إلى الخليفة الناصر ليفسر له سبب نزوله عن قلعة رياح ويخيره بجيوش النصارى، لكن وزيره ابن جامع لم يسمح لابن قادس بالدخول على الخليفة وأمر بسجنه رفقة صهره، وكان قبل هذا قد حجب كتاب ابن قادس الذي أرسله للخليفة، وقام بتحريض الخليفة عليه بتهمة التنازل عن القلعة، حتى أصدر في

[1]– محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص296.

[2]– السلاوي، الاستقصا، المصدر السابق، ج2، ص199.

[3]– ابن عذارى، المصدر السابق (قسم الموحدين)، ص321.

[4]– عمر راكة، المرجع السابق، ص106.

حقه حكم القتل، فقتل هو ومساعده فحقد الأندلسيون على ابن جامع وفقد ثقتهم وفسدت نيتهم في الخليفة الناصر.[1]

وكان أبي زرع محقا في قوله عن نسب أبي سعيد بن جامع بأنه لم يكن شريف النسب في الموحدين، فلما ولي حجابة المنصور ووزرائه أخذ يقهر أعيان الموحدين ويهين أهل الشرف منهم،[2] واستأنف النصارى زحفهم بعد الاستيلاء على قلعة رياح، فمروا على قلعة سلبطرة دون أن يحاولوا الاستيلاء عليها وعبروا جبال الشارات،[3] وفي 10 صفر 609هـ/ 13 جويلية 1212م، استولوا على حصن العقاب وقتلوا حاميته الإسلامية ثم استمروا في سيرهم فظلوا الطريق، ووجدوا أنفسهم أمام طريق وعر يجهلون مخاطره فدب في قلوبهم الرعب وتوقعوا هجوما مفاجئا من كمائن الموحدين إلى أن أرشدهم أحد الرعاة إلى الطريق الصحيح فسلك النصارى ذلك الطريق إلى أن بلغوا سهل آبذة[4] فضربوا معسكرهم، وكان الخليفة الناصر خلال ذلك في طريقه للقاء الصليبيين، فكانت الجيوش الموحدية تتألف من خمسة أقسام: يضم القسم الأول طوائف العرب، والثاني يضم القبائل المغربية مثل صنهاجة وزناتة والمصامدة وغمارة، والثالث المتطوعة، والرابع الجند النظامي والخامس الجند الأندلسي.[5]

واتجه الناصر بجيشه من مدينة جيان[6] إلى ضفة الوادي الكبير نحو بياسة،[7] واحتل سريات من خيرة جنده وممرات جبل الشارات المؤدية إلى أربة وبياسة، ومع ذلك استطاع

---

[1]– هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص288.

[2]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص237.

[3]– جبال الشارات: هو جبل يقع شمال مدينة طليطلة وهو جبل عظيم معروف بالشارات. أنظر: الحميري، الروض المعطار، ص394.

[4]– آبذة: مدينة بالأندلس بينها وبين بياسة سبعة أميال، وهي مدينة على مقربة من النهر الكبير، وفي سنة 609هـ مالت عليها جموع النصارى بعد معركة العقاب. أنظر: الحميري، المصدر السابق، ص6.

[5]– هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص289.

[6]– جيان: مدينة أندلسية بعيدة على بياسة عشرون ميلا، وهي كثيرة الخصب في سفح جبل عال جدا وتمتاز بالحصانة. أنظر: الحميري، المصدر السابق، ص183.

[7]– بياسة: مدينة بالأندلس، بينها وبين جيان عشرون ميلا وهي تطل على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة. أنظر: الحميري، المصدر السابق، ص121.

النصارى بعد أن نفدوا إلى ممر "موردال" أن ينتزعوا بعد معركة عنيفة بقلعة "فرال" الواقعة في قمة الجبل، وكان الموحدين قد قصروا بثمنها بالعدد الكافي من الجند ولكن النصارى لم يهتموا بأخذها كثيرا، واحتل المسلمون الممر الذي يفض من أعلى الجبل إلى سهل تولوز.[1]

وقد أكد ألفونسو ملك قشتالة في رسائله إلى البابا أنوسات الثالث أنه يستحيل على القوى العالم كلها أن تخترق هذا الممر الصعب والوعر، فكان عليهم الارتداد لأنه كان يأبى أن يتسرب النصر إلى الأعداء، وفي حين أنه لم يشتبك معهم بعد إذ تقدم راعي مَكَّنَ رعاة هذا المكان وقام بإرشاد الجيش إلى طريق آخر دون تفطن المسلمين وعدم إعاقتهم، وفي نفس اليوم السبت 14 جويلية 1212م، سار النصارى بإرشاد الراعي فاحتلوا المرافع وكان بسيط شاسع يصلح لنزول الجيش وحصنوا المكان، وأخفوا حركة الجيش عن المسلمين ثم غادروا في النهاية قلعة فرال فاحتلها المسلمون على الآخر،[2] معتقدين أن النصارى قد ركنوا إلى الفرار ثم نزلت الجيوش إلى مكان عدوهم أمام الطرف الغربي لقرية "سانتا مارينا".

وبالرغم من المزايا التي حصل عليها النصر باحتلال هذا المكان، فإن السلطان الموحدي واثق من تفوق قواته ومكث في ذلك المكان للقاء النصارى، واعتمد الخليفة الناصر على ما بلغه من حوادث الانشقاق في جيوش النصارى وما لقاه من متاعب التموين، وانتهاز الفرصة في لقائها، فثارت الهمم ويبدو من أقوال سائر الروايات الإسلامية أن الناصر كان واثقا من النصر معتزا غاية الاعتزاز بضخامة جنوده وتفوقه العددي،[3] فدعاهم إلى القتال في في نفس اليوم، ولكن الملوك الإسبان لم يقبلوا بهذه الدعوة إذ كان جيشهم منهك القوى من أثر السير إلى المكان الجديد ولم يكن قد تم تحصين المعسكر.[4]

وفي اليوم الثاني نظم الخليفة الموحدي جيشه لخوض المعركة غير أن ملوك النصارى آثروا الاعتصام بموقعهم المنيع، ولم يسمح إلا لبعض الفرسان بالالتحام مع المسلمين في مبارزات ثنائية ولم يكن في صالح النصارى تأخير المعركة خوف من نفاذ

[1]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص ص115– 116.

[2]– المرجع نفسه، ص116.

[3]– عبد الله عنان، دولة الإسلام، ع3، ق2، ص301.

[4]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص117.

مؤنهم، وبالمقابل تعبئة الجيش الموحدي المستمرة للقتال وقد يفاجئ النصارى بالهجوم، وتدارك الناصر أحوال المعسكر النصراني فرأى بأن باستطاعته إخضاع النصارى بثلاثة أيام.[1]

وأصبح الخليفة الموحدي كأنه يحبس في حصن منيع وكان يوسع النصارى معرفة جموع المسلمين التي لا تحصى من خلال الربى العالية.[2]

وفي صفر 609هـ، استعد الفريقان لخوض المعركة وقضى النصارى شطرا من الليل في الصلاة والدعاء وتلقى البركة والغفران البابوي على يد الأساقفة ورجال الدين،[3] في حين أن هذه المظاهر لم تشهد عند الجيش الموحدي من وعظ وبكاء وحث على الجهاد مثلما شاهدناها سابقا في معركة الأرك، وذلك لأن الخليفة هذه المرة كان واثقا من نفسه بأن النصر سيكون بيده وهذه الثقة كانت جراء العدد الهائل لجيشه،[4] حيث أجمعت المصادر على أن جيش الناصر في هذه المعركة كان أكبر جيش والذي قدر ب600 ألف مقاتل.[5]

وبدأت المعركة بيوم الاثنين 15 صفر 609هـ/ 16 جويلية 1212م، وكان كل جيش على أهمية الاستعداد لخوض المعركة وقد رتبت الصفوف كما ذكرنا سابقا، حيث التقى المسلمون والصليبيون في إحدى الوديان الفسيحة "نفارا" عند السفح الجنوبي لجبل الشارات في مكان يسمى بالاسبانية NAVASE DE TOLOS أي وديان تولوزا ويسميه المسلمون بالعقاب،[6] ويوجد به ممر اسمه موردال ففيه وقعت المعركة بالضبط.[7]

---

[1]– عبد الله عنان، المرجع السابق، ص308.

[2]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص118.

[3]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص ص234– 235.

[4]– عبد الله عنان، المرجع السابق، ص311.

[5]– أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص318.

[6]– العقاب: موقع بين جيان وقلعة رياح، وهو ليس علما على بلدة أو مدينة، وإنما هو اسم لهذه المعركة، نظرا لكونها وقعت فعلا في العقاب جمع عقبة وأوعار بجبال الشارات وهو المرتقى الجبلي، ينظر: مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار، عبد القادر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1399هـ 1979م، ط1، ص161.

[7]– عبد الله عنان، المرجع السابق، ص311.

ولما تمت استعدادات المعركة خرج سلطان الموحدين من قبته وهو يرتدي عباءة سوداء من مخلفات جده سلطان الموحدين وقد رفع المصحف الشريف بإحدى يديه، وشهر سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبول يدوي بشدة في ساحة المعركة، وسارع جند المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة في سبيل الله، وكان هجومهم عنيفا لكنهم لم يخترقوا صفوف النصارى حيث استطاعوا رد جموع المسلمين وسقط إثر هذا الهجوم ألوف المسلمين، وتقدم النصارى مطاردين المتطوعة المسلمين إلى أن ظفروا بقلب الجيش الإسلامي، واشتدت المقاومة فاضطر النصارى إلى مغادرة مراكزهم الأمامية فارين، فلاحقهم المسلمون.[1]

ولما رأى ملك قشتالة من الربى تطور المعركة على هذا النحو السيئ من تراجع القوات النصرانية في القلب والجناحين وما ينذر به ذلك من هزيمة محققة[2] فقرر السير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين وهم يرفعون أعلاما عليها صورة المسيح وكانت له كلمات قالها لمطران طليطلة وهي: "إن الساعة قد حانت لنلقى الموت المجيد"[3] مما يدل على يأسه من تحقيق النصر، لكن المطران اعترضوا على ذهابه وأرسلوا أشجع الجنود لإمداد الجيش المرتد نحو الجيش الموحدي، وهجمت قوات النصرانية كلها في وقت واحد بمنتهى العنف والشدة.[4]

وبدأت ميمنة الجيش الموحدي وميسرته في الارتداد أمام ضغط الفرسان النصارى، فرّ قوات الأندلس وحشودها لما كانوا حقدوا في قلوبهم بعد قتل ابن قادس وتهديد ابن جامع لهم وطردهم وتبعهم العرب،[5] التي أحدثت اضطرابا في صفوف الموحدين، وهنا تمركز هجوم النصارى على قلب الجيش الموحدي.[6]

---

[1]– علي محمد الصلابي، تاريخ المرابطين والموحدين، المصدر السابق، ص403.

[2]– عبد الله عنان، المرجع السابق، ص319.

[3]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص119.

[4]– هشام أو رميلة، المرجع السابق، ص ص290– 291.

[5]– المرجع نفسه، ص292.

[6]– عبد الله عنان، المرجع السابق، ص319.

لينتعش النصارى بما شهدوا من تطور المعركة في صالحهم، فشددوا الهجوم على الموحدين الذين صمدوا ودافعوا بمنتهى الشجاعة، وأخذ الخليفة في هذه الأثناء يحث جنده بمواصلة القتال، فاخترق النصارى قلب الجيش الموحدي إلى دائرة الحرس الأسود، فردتهم السلاسل الحديدية ورماح العبيد حول قبة الخليفة، لكن النصارى اخترقوا دائرة المدرعة فدخلها الكونت ألباروند نيزدي ثم دخلها ملك أراغون ونفار، كل من ناحية وبذلك مزق الجيش الموحدي من كل ناحية وكثر القتل وليت الخليفة الموحدي في آخر لحظة في مجلسه محاولا لبث حث جنده على الصمود، وهنا تجلت هزيمة المسلمين رغم صمودهم وشجاعتهم في هذه المعركة.[1]

ب- المرحلة الثانية:

تميزت هذه المرحلة بأحداث معركة "حصن العقاب" وكان لهذه الوقعة الأثر البالغ على سقوط الدولة الموحدية، قام كل طرف بتهيئة قواته لخوض غمار المعركة[2] أما الجيش النصراني قسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية، يتزعم كل قسم منها ملك نصراني: الأول ويتكون من القلب ويقوده ملك قشتالة ألفونسو الثامن إلى جانب احتفاظه بالقيادة العليا، ويتكون الثاني من الجناح الأيمن ويقوده سانشو ملك نفارا ويضم بالإضافة إلى القوات النافارية جنودا سرية وشقوية ومدينة سالم والفرسان الذين يرأسهم المطران أربون وجند جليقية والبرتغال، ويتكون الثالث من الجناح الأيسر الذي يقوده بيدروا الثالث ملك الأراجون، ويشتمل على قوات الطليعة التي يقودها أراغون.[3]

أما الجيش الموحدي فقد قسم إلى خمس فرق، تتألف الفرقة الأمامية من القوات الأمامية المتطوعة ومختلف الطرائق، وتتألف قوات القلب والقوات الاحتياطية من الجند

[1]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 312.

[2]- المرجع نفسه، ص: 553.

[3]- يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص ص: 117- 118.

الموحدين، وهم أغلبية الجند النظامية، وتتألف الميمنة من قوات الأندلس، والميسرة من قوات البربر من مختلف القبائل.[1]

فضرب الخليفة القبة الحمراء فوق ربوة عالية تتوسط البسيط الذي توجد به القوات الموحدية، والذي يواجه مواقع الجيش النصراني، وبادرت بالعبيد وهو أغلبية حراس الخليفة حول القبة من كل ناحية، وكلها مزودة بالسلاح والعدة، وضرب في نفس الوقت حول قبة الخليفة من الأعمدة وعدد من السلاسل الحديدية الضخمة، وانتهز الجند الفرص فذهبوا اتجاه العدو، فكانت سدا منيعا يصعب اختراقه، فبقي الناصر في قبته مستندا إلى درقته ومعه أشياخ الموحدين، وربطت فرسه مسرجة أمامه ووضعت الساقات والجنود والطبول أمام العبيد تحت إمرة الوزير أبو سعيد بن جامع.[2]

وبقي الخليفة في خيمته صامدا، أقبل إليه أعرابي ونبأه بفرار جنده ونشده ألا يقعد بعد، فقال الخليفة الناصر "صدق الرحمان، وكذب الشيطان" بعد أن يئس من الحياة بعد وفاة ولده الأكبر ثم امتطى صهوة جواده[3] وغادر ميدان الحرب إلى بياسة ثم اتخذ طريقه منها إلى جيان والنصارى يطاردون المسلمين في كل ناحية واستمرت هذه المطاردة إلى حلول الليل.[4]

واعتبرتها الروايات أنها من أشنع ما وقع من حروب السفك والتقتيل، إذ قتل نفر كثير في المطاردة أكثر مما قتل في المعركة إذ هلك فيها عشرات من الجند الفارين وأن خسائر المسلمين في هذه المعركة كانت فادحة جدا، حيث تناقلت المصادر الإسلامية أنه لم ينجوا من الجيش الموحدي إلا الواحد من الألف،[5] ويصفها صاحب الحلل الموشية للموقعة "أنها كانت الهزيمة العظمى التي فُنِيَ فيها أهل المغرب والأندلس"،[6] ويقول صاحب الذخيرة السنية

[1]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص: 234.

[2]– عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 310.

[3]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص: 239.

[4]– عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 313.

[5]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص: 122.

[6]– مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المصدر السابق، ص: 160.

"مشيرا إلى الموقعة أنه قتل من المسلمين خلق كثير لا يحصى وفيها فني جيوش المغرب والأندلس"[1] ويفيدنا صاحب نفح الطيب في هذا الصدد بأنه محصن الله المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب واستشهد منهم عدة وكانت سبب ضعف المغرب والأندلس.[2]

وهي تعرض تواريخ النصرانية وهي موقعة الهضاب أو عقاب تولوسا، لوقوعها فوق مجموعة من الوديان الصغيرة التي تحيط بها الربى، تقع في سفح جبل الشارات الجنوبي، وتعرف أيضا بموقعة أبدة لوقوعها على مقبرة من شمال غربي هذه المدينة، وأما التواريخ الإسلامية فإنها تعرف بموقعة العقاب.[3]

في حين أجمعت كل الروايات الإسلامية والنصرانية على أن معركة العقاب أذهبت قوات المسلمين والموحدين في الأندلس والمغرب واعتبروها السبب الرئيسي في سقوط الأندلس واندثار حكم الموحدين التي لم تنتصب لهم راية بعد ذلك، وكانت من أكبر الهزائم التي مني بها المسلمون في الأندلس وكانت خسائرهم كبيرة جدا وفادحة لم تقم للموحدين بعدها قائمة وكان لهذه المعركة نتائج عظيمة وأثر كبير على الأندلس وهذه النتيجة تفاجئ بها الجيش الموحدي الذي اغتر بكثرة عدده وظن منذ بداية المعركة أن النصر سيكون حليفه غير أن هذه الثقة الزائدة والغرور أودت بالخسارة الفادحة في صفوف الجيش الموحدي.

3- أسباب الهزيمة في موقعة العقاب:

من أسباب هزيمة الموحدين في معركة العقاب نجد:

الإعجاب بالكثرة وكأن غزوة حنين تتكرر بعد حوالي ستة قرون في هضاب الأندلس، فالثقة الزائدة بآلاف الجند وبمقدرة القادة، أفقد القائد وكذلك الجند الاعتماد والتوكل على الله

---

[1]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 314.

[2]- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ- 1988م، ط1، ص: 446.

[3]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ص: 313- 314.

تعالى، وهذا ما يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل انسحابه ألا وهي: "صدق الرحمان وكذب الشيطان".[1]

كما لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب، ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار على سلبطرة وأخذ برأي الوزير أبي سعيد بن جامع، الذي أصرّ على ملازمة الحصار واستمر لمدة ثمانية أشهر، وانجر عن ذلك نقص المؤن والتموين وأصبح الجيش معرض لقسوة الطبيعة وكل هذا بسبب الأخذ بالرأي الفردي وترك الرأي الجماعي.[2]

سبب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رياح استياء في الجيش كله ولاسيما بين جند الأندلس لعلمهم إخلاص بن قادس وأنه قتل ظلما جراء تحريض الوزير.[3]

ضعف شخصية الناصر لدين الله الذي أصبح ألعوبة في يد الوزير أبي سعيد بن جامع. إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك وأخذ بكافة الأسباب التي تعينه على تحقيق النصر، فوحد الجبهة الداخلية وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوروبا وجعل الحرب مقدسة من أجل العقيدة.[4]

الثورات التي حدثت في المغرب مع بني غانية جعلت الموحدين ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم.[5]

فوضى الإدارة وتفكك وحدة قبائل الموحدين، بالإضافة إلى الاضطراب الذي أحدثته العرب الهلالية، ومماليك الغز في البلاد، وغاراتهم المستمرة في نواحي الموحدين.[6]

---

[1]– شوقي أشباخ، المرجع السابق، ص177، ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص239.

[2]– علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص405.

[3]– هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص288.

[4]– شوقي أبو خليل، العقاب، المصدر السابق، ص23.

[5]– عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيدالعريان، المجلس الأعلى للشؤون الاجتماعية الإسلامية، بالجمهورية العربية المتحدة، دس، ص233.

[6]– على محمد الصلابي، المرجع السابق، ص406.

4- نتائج معركة العقاب:

كانت الأندلس بمثابة الظهر والسند للموحدين، وبفشل الموحدين في موقعة العقاب ضعف شأنهم في الأندلس والمغرب بعد ذلك.

يقول أبو سحق إبراهيم بن الدباغ الاشبيلي:

وقائلة أراك تطيل فكرا فأنك قد وقعت لدى الحساب.

فقلت لها أفكر في عقاب غدا سببا لمعركة العقاب.

فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلى من كل باب.[1]

واعتبرت هزيمة العقاب مثل الطعنة القاسمة للدولة الموحدية، حيث توفي الناصر بعد سنة ونصف من المعركة أي في شعبان 610هـ وتولى العرش الموحدي ابنه المستنصر قبل أن يبلغ سن الرشد، فأصبح تحت وصاية وزيره ابن جامع وهذا ما يخل بالاستقرار الداخلي للدولة الموحدية، وهذا ما رحب للهدنة مع النصارى خاصة القشتاليين، ويتجلى عدم الاستقرار في عدد من الجوانب فمثلا نجد مشكلة الجند الموحدي بالأندلس وثورة كزولة بجنوب المغرب الأقصى وخاصة فتن المرينيين.[2]

وفيما يخص المدن الأندلسية فقد تتابع سقوطها الواحدة تلوى الأخرى بسبب الخلفاء الضعاف الذين تولوا أمور الدولة الموحدية بعد وفاة الناصر كذلك فشل الثورات المحلية التي تزعمها الزعماء المحليون وكانت الأمور على درجة كبيرة من الوفاق في معسكر الممالك المسيحية، حيث اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد وفي ظل الملك فرناندوا الثالث الملقب بالقديس[3].

[1]- طارق سويدان، المرجع السابق، ص: 370.

[2]- أحمد عزاوي، المرجع السابق، ص: 187.

[3]- راكة عمر، المرجع السابق، ص: 110.

وقد شهد عهد الناصر الكثير من الثورات والفتن وبوفاته خلفه من بعده ابنه يوسف المستنصر[1] الذي عرف بضعف شخصيته في وقت كانت فيه الأندلس بحاجة إلى من يعيد لها هيبتها، فأمثال هؤلاء الخلفاء الضعاف ليس لديهم فكرة واضحة عن المسؤولية والأخطار التي تحدق بهم مما جعلهم عرضة للأخطار الداخلية إضافة إلى الأخطار الخارجية ومع ذلك انغماسهم في الترف والملاهي والملذات.[2]

بعد وفاة المستنصر بالله سنة 620هـ/ 1223م بدأ تسلط الأشياخ الموحدين على الحكم واستبداد في السلطة وتوجيهها وفقا لما تقتضيه مصالحهم، فرفعوا ما شاءوا أخلعوا من كرهوا وقتلوا من أرادوا بغير حق.[3]

وبعد تولي عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن،[4] قتل هذا الأخير بعد أن حكم فترة قصيرة لا تتجاوز ثمانية أشهر والذي رسمت نهايته بالقتل،[5] وتولى الحكم بعده أبو أحمد عبد الله بن يعقوب المنصور المعروف بلقب العادل 621هـ/ 1224م حكم ثلاث سنين وسبعة أشهر وتسعة أيام، توفي مقتولا سنة 624هـ.[6]

لتظهر بذلك نية الأشياخ والمكائد والدسائس لبعضهم البعض من أجل الحكم، ووصلت حدة هذا الصراع إلى أبناء القبيلة الواحدة مثل بني حفص الذين تكالبوا على الحكم والسلطة،[7] فتأزم الوضع السياسي وبدأت الدولة تسير في طور الاحتلال بعد الدور البارز في في استبداد الولاة بأقاليمهم وانفصالهم نهائيا عن مراكش.[8]

---

[1]– ابن عذارى، المصدر السابق، (قسم الموحدين)، ص: 265.

[2]– عبد الواحد المراكشي، المعجب، المصدر السابق، ص: 404.

[3]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص ص: 244– 245.

[4]– عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن: حكم ثمانية أشهر وخمسة أيام (620هـ/ 1223م) أولها الأحد وآخرها السبت، توفي مقتولا سنة 621هـ/ 1224م. أنظر: ابن أبي زرع الفاسي، المصدر نفسه، ص ص: 242– 243.

[5]– ابن عذارى، المصدر السابق، ص: 269.

[6]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص ص: 245– 247.

[7]– الحميري، المصدر السابق، ص: 70.

[8]– ابن عذارى، المصدر السابق، ص: 270.

وبعد وفاة لخليفة العادل، طلب الخلافة شخصان وهما: أبو العلاء إدريس الملقب بالمأمون[1] بمبايعة أهل الأندلس له سنة 624هـ/ 1227م، ويحي الناصر الملقب المعتصم،[2] المعتصم،[2] ودار بين الخليفتين صراع شديد على من هو أحق بالخلافة حيث صارت المغرب والأندلس في عهد هؤلاء الخلفاء حلبة صراع واقتتال وفوضى، فتفاقمت الأوضاع وبلغ تسلط الوزراء بالإدارة إلى إبرام المعاهدات وعقد الاتفاقيات بعد أن كانت من صلاحية الخليفة وحده.[3]

وأصبح لكل من ملك قلب الخليفة نصيب من الحكم، فقد دنى الفساد في عهد الخليفة الناصر بين هياكل الدولة،[4] وقد أدى هذا الأمر استنزاف طاقات الدولة التي أنهكت أصلا بفعل ضعف الخلفاء وصغر سنهم وقصر فترة حكمهم، كما وجدوا الثوار فرصهم مع مرحلة الضعف السياسي والإداري والعسكري واتصفوا بالقوة والشمولية.[5]

ومن أهم الثورات ثورة بني غانية، حيث تعتبر من أهم الثورات وأعتقها في تلك المرحلة 596هـ، أنهكت هذه الأخيرة قوى الدولة الموحدية وكانت السبب في موقعة العقاب لأن الدولة أنفقت في سبيل إخمادها نفائس أموالها وخيرة رجالها.[6]

وتداول على الحكم في الدولة الموحدية خلفاء ضعاف إلى أن وصل الأمر إلى مزاحمة يحي بن الناصر للمأمون على الحكم، فافترق الموحدون إلى فريقين.[7]

كذلك ظهر خطر آخر وهو بنو هود (أمراء سرقسطة) الذين حاولوا إخضاع الأندلس حيث سارعت مرسية معظم بقاع الأندلس طاعة ابن هود وأعلن نفسه عدوا للنصارى واعتبر

---

[1]– المأمون: هو أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور، كنيته أبو العلاء، حكم خمس سنوات وثلاثة أشهر، توفي بمراكش 629هـ. ينظر: مؤلف مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص ص: 163– 166.

[2]– المعتصم: هو يحي بن الناصر أبي عبد الله محمد بن يعقوب المنصور بالله، كنيته أبا زكريا، حكم 9 سنوات توفي 633هـ. ينظر: مؤلف مجهول، المصدر نفسه، ص: 166.

[3]– ابن خلدون، العبر، ج6، ص: 331.

[4]– ابن عذارى، المصدر السابق، ص236.

[5]– علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص396.

[6]– عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص ص223– 234.

[7]– ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص253.

نفسه خليفة العباسيين بالأندلس، وانهزم هذا الأخير أمام ألفونسو[1] في معركة شديدة انتهت باستيلاء الليونيين على ماردة وهي مدينة عظيمة على ضفة واد يانة وعلى بطليوس وكان ذلك سنة 1230م،[2] وقد تمكن ابن هود من فرض سلطانه على شرق الأندلس.[3]

وهكذا أخذ الموحدون يخسرون مقاطعة تلوى الأخرى ولم يروا أمامهم سبيلا سوى عون النصارى، لذلك تحالف المأمون مع النصارى (القشتاليين) لتحطيم خصومه ضد ابن هود، ورغم استنجادهم بالنصارى إلا أن مدنهم أخذت تتهاوى الواحدة تلوى الأخرى فسقطت مقاطعة بلنسية[4] التي كان واليها أبو عبد الله أخ المأمون، كما ثار أبو موسى أخوا المأمون والي سبتة وانضم بقواته إلى ثوار الأندلس واستطاع يحي الناصر فتح مراكش وتوفي بعدها المأمون في 30 ذي الحجة سنة 629هـ.[5]

بعد وفاة المأمون حاول الحزب الذي رفع ابن أخيه أبا زكريا إلى العرش أن يحصل لمرشحه المبايعة العامة ولكن الحزب المعارض كان أقوى، فعمل بتأييد الحرص النصراني على تولية ولد المأمون أبي محمد عبد الواحد وهو ابن الرابعة عشر وتلقب بالرشيد، أما يحي فقد استمر أربع سنوات يخوض فيها معارك حيث هزم فيها دوما ثم توفي على مقربة من فاس سنة 633هـ، وبعد وفاته استمرت دسائس الأحزاب التي كانت على يد عبد الواحد الذي لقي حتفه بعد أن ركض به جواده إلى بركة فغرق وتوفي في 9 جمادى الثانية 640هـ/ 4 ديسمبر 1242م، وذلك بعد أن حكم عشرة سنوات وبضعة أشهر، وفي فترة حكمه فقد المسلمون الأندلس وقرطبة واشبيلية وأراضي كثيرة استولى عليها النصارى من محمد بن هود.[6]

---

[1]– راغب سرحاني، المرجع السابق، ص: 625.

[2]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص: 162.

[3]– عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 744.

[4]– محمد علي يطلب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، دار المصرية للنشر، القاهرة، 1406هـ/1985م، د.ط، ص: 27.

[5]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص: 163.

[6]– المرجع نفسه، ص: 164.

وانتهز القشتاليون والأراغوانيون فرصة قيام الحرب الأهلية بين المسلمين في الأندلس واستولوا عن بعض المدن الأندلسية أندوجر منذ سنة 633هـ، بينما أتم الليونيون فتح إقليم أسترا مادورة ولما اتحدت مملكتا قشتالة وليون في ظل الملك فرناندو الثالث الملقب بالقديس أتيح له الاستيلاء على بياسة وأبذة[1] سنة 633هـ، وعلى قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس سنة 636هـ، وعلى اشبيلية حاضرة الموحدين،[2] وفي سنة 646هـ تمكن من ضم قادس بالإضافة إلى ضم جميع المدن الواقعة قرب مصب الوادي الكبير، وفي شرق الأندلس تمكن ملك أراغون من الاستيلاء عليها سنة 649هـ.[3]

كل هذه المدن التي تساقطت كانت في فترة حكم أبي الحسن الملقب بالسعيد أخ عبد الواحد الذي حكم بعد وفاة أخيه مباشرة، عانى في فترة حكمه من خصوم جدد وهو بنو مرين،[4] الذين نازعوهم عن السيادة في المغرب، حيث وفق في معاركه مع بني مرين وذلك بمساعدة من النصارى لكنه هزم بعد ذلك في موقعة نشبت بينه وبين يحي بن زيان أمير تلمسان ، وقتل أثناء القتال ولم يمض في الحكم ستة أعوام بعد توفي في 29 صفر سنة 646هـ/ 1248م.[5]

وظلت الفوضى ضاربة أطنابها في المغرب والأندلس في عهد خلفاء الموحدين الضعاف حتى كانت أيام المرتضي،[6] الذي لم يستطع تحسين الأوضاع إلى سابق عهدها وحاول تنشيط الأسس التي أبطلها المأمون، ولم يتأثر الشعب بحج المرتضي إلى قبر

---

[1]– أبذة: مدينة بالأندلس بينها وبين بياسة 7 أميال وهي مدينة صغيرة على مقربة من النهر الكبير. أنظر: الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص: 64.

[2]– أحمد عزاوي، المرجع السابق، ص ص: 197– 198.

[3]– عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 745.

[4]– بنو مرين: عنصر زناتي، وزناتة كانت موطنها الأصلي يمتد ما بين بلاد الزاب بإفريقية وحوض نهر ملوية، أي من منطقة السهوب الرعوية الواسعة ومنطقة تربية الخيول الأساسية، وقد شارك الفرسان الزناتيون ومنهم المرينيون في الأرك، غير أن هذا العنصر منذ أواسط عهد الناصر أصبحت مصدر قلق للموحدين، خاصة عندما ناصرت بني غانية بتلمسان سنة 605هـ واستغلت انهيار الجهاز العسكري الموحدي لتتسرب عبر ممر تازة، واستغلت ضعفهم لتركيز نفوذها. أنظر: أحمد عزاوي، المرجع السابق، ص ص: 187– 188.

[5]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص: 164.

[6]– عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 745.

المهدي وهكذا بينما هو يحاول عبثا يرد القديم، كانت النواحي تخرج عن قبضة الموحدين واحدة بعد الأخرى،[1] وكانت أنقاض سيادتهم في الأندلس تؤول إلى أمير غرناطة محمد بن الأحمر.[2] ونشبت في سبتة ثورة لا يستطيع المرتضي إخمادها وسقطت فاس في يد المرينيين، خرج أمير من أمراء الموحدين وهو أبو العلاء إدريس بن أبي حفص بن إبراهيم بن عبد المأمن الملقب بأبي دبوس سنة 665هـ محاولا إسقاط عمر وانتزاع الملك لنفسه، فتحالف مع بني مرين وسلمهم مدينة مراكش بطريق الخيانة، فاحتلوها وفر عمر المرتضي ناجيا بنفسه منبوذا من جميع أصحابه إلى أن قتله عبده المرافق له 22 صفر 665هـ بعد أن حكم تسعة عشر عاما إلا بضعة أشهر.[3]

بعد ذلك ولي إدريس أبو الدبوس[4] بمعاونة المرينيين ذلك العرش المضطرب، وقبض على أبناء سلفه وعاقبهم بالسجن ليأمن حكومته، ثم طلب بنو مرين منه أن يحكم باسمهم باعتباره تابعا لهم، فأبى إدريس وحشد كل ما تبقى من القوات الموحدية لخوض غمار الحرب، فنشبت معركة حامية بين الطرفين في 2 محرم 668هـ/ 1269م على واد الغفير، فقتل إدريس ومن معه من الموحدين وكانت هذه نهاية الموحدين بعد أن قامت دولتهم مدة مئة وواحد وخمسون سنة وانتهت بالرابع عشر من أمرائها وهو إدرسي أبو الدبوس لكي تعقبها دولة بني مرين.[5]

هكذا فإن الدولة انتهت فعلا عام 1212م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسون عاما بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة إذ تهاوت الدولة مع الأيام وكانت أيامها الأخيرة على أيدي بني مرين.[6]

---

[1]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص: 165.

[2]– راغب السرجاني، المرجع السابق، ص: 626

[3]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص: 165.

[4]– عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 745.

[5]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص: 166.

[6]– علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص: 220.

الفصل الثاني:

العلاقات التجارية بين الموحدين والممالك النصرانية

- المبحث الأول: النشاط الزراعي والصناعي للدولة الموحدية
- المبحث الثاني: التجارة قبيل الموحدين (عهد المرابطين)
- المبحث الثالث: العلاقات التجارية للدولة الموحدية مع البلدان الأوربية
- المبحث الرابع: المبادلات التجارية بين الموحدين والممالك النصرانية

المبحث الأول: النشاط الزراعي والصناعي للدولة الموحدية

1- الزراعة:

إن الاستقرار الذي عرفته الدولة الموحدية ساهم في التطور خاصة فترة حكم الناصر الموحدي[1]، حيث زاد الإنتاج الزراعي، وشهدت البلاد وفرة في المحاصيل، وقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على ذلك منها: وفرة الموارد المائية (نهر ملوية، نهر سبو، نهر أبو رقراق وأم الربيع، نهر تانسيفت ونهر السوس الأقصى)، بالإضافة إلى القوة البشرية وهم الفلاحين، الذين اتخذوا الفلاحة كمهنة[2] يتوارثونها عن أجدادهم، ومما شجع على انتشار الحدائق ونظام البستنة، ووفرة الحبوب بشكل يفوق حاجة بلاد المغرب كميات الأمطار الكبيرة[3]، كما راقبت الدولة أحوال الزراعة وشجعت المزارعين لتدّر الأرض أكبر قدر من الإنتاج، علما أن أرض المغرب من أخصب بقاع الأرض[4]، التي عرف منتوجها المنتوج الفلاحي بالتنوع كالحبوب[5] كالحبوب[5] والزيوت الذي يستعمل للتغذية والإنارة والعلاج[6]، وكان اهتمامهم بنظام الغراسة اهتمام فائق[7]، وتجلى ذلك في مراكش التي كانت من أكثر بلاد المغرب بساتين[8]، كما انتشرت غراسة البساتين في كل من فاس ومكناس، وتشجيعا لذلك قام عبد المؤمن الموحدي

---

[1]- أبي محمد حسن بن علي بن محمد عبد الله الكتامي، المعروف بابن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ط1، ص: 157.

[2]- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي بمصر، 1980م، ط1، ص ص: 232-235.

[3]- مصطفى نشاط، جنوة وبلاد المغرب من سنة 609هـ/1212م إلى سنة 759هـ/1358م، مساهمة في دراسة العلاقات الإيطالية المغربية أواخر العصر الوسيط، مطابع الرباط، 2014م، دط، ص: 128.

[4]- عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي بالمغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، ط2، ص: 184.

[5]- الحبوب: نباتات حولية من فصيلة النباتات أهمها: القمح، الشعير، الأرز...الخ. ينظر: عبد العزيز رشيد، زراعة الحبوب بالمغرب الأوسط من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين، 668هـ/1269م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، جامعة الجزائر، 2012-2013م، ص: 43.

[6]- يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص: 494.

[7]- عز الدين عمر موسى، المرجع السابق، ص: 190.

[8]- أبي العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، مطبعة الأميرية، القاهرة، 1913، دط، ج5، ص ص: 153-161.

بإدخال الماء عن طريق القنوات بتوفير مياه الشرب والسقي[1]، هذه الطريقة الهندسية الرائعة في نظام الري ساهم في تشجيع البستنة والحفاظ عليها[2].

وفي مالقة استعملوا طريقة الري بالأحواض، على نسق ما كان يتبعه المصريون في الري، وكانت أكثر وسائل الري انتشارا هي الروافع من السواقي أو النواعير التي تديرها الدواب التي غالبا ما تكون من الثيران، وأفادت تلك الوسائل في زراعة ضفاف الأنهار، وبالإضافة إلى جهود المرابطين والموحدين بتوفير مياه الري، ظهرت جهود فردية يبذلها أصحاب الأراضي الزراعية أنفسهم كما فعل ابن ملجان في وادي آش، كما اعتمد أهل غرناطة على الأمطار أيضا في ري مزروعاتهم خاصة في المناطق الجبلية[3]، فكانوا يحرصون على الاحتفاظ بمياه الأمطار وتخزينها في صهاريج واستعمالها وقت الحاجة، خاصة في فترة الجفاف[4].

وكانت الصهاريج أكثر شيوعا فقد بنى عبد المؤمن عددا منها في مراكش وشيد يوسف عددا آخر في مراكش والرباط، والظاهر أن الصهاريج كانت كبيرة حتى أن أحد صهاريج عبد المؤمن بن علي كان يستعمل في تدريب جيش الموحدين على العوم وأعمال البحرية، ولا يكاد القوي يقطعه عموما إلا بمشقة وكان طول أحد صهاريج المنصور في مراكش 380 باعا وطول أحد صهاريجه في فاس من كل جانب 216 ذراعا بالمرفق، وكان الموحدون يحرصون على غرس أشجار كثيرة حول هذه الصهاريج للتقليل من درجة تبخر الماء، وتفرغ هذه المياه المجموعة في جداول للسقي، وكان الموحدون يهتمون بصيانة هذه الجداول وتجديدها، مما يدل على عظيم صنيعهم وإبداعهم في مجال الري ووسائله[5].

---

[1]– حمدي عبد المنعم، محمد حسين، مدينة سلا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993م، ص: 61.

[2]– مؤلف مجهول، الاسبتصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص: 180.

[3]– سامية مصطفى محمد مسعد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين من 480هـ620هـ/1092م–1223م، المكتبة الثقافية الدينية، د.س، د.ط، ص ص: 102–103.

[4]– موريس لمبار، الإسلام في مجده الأول من القرن 2–5هـ/ 8–11م، تح: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، 1411هـ–1990م، ط3، ص: 184.

[5]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص ص: 182–183.

وما يلاحظ على بلاد المغرب هو كثرة إنتاجها الحيواني، بالإضافة إلى المعادن والأخشاب[1]، وسادت تربية الحيوانات في بلاد المغرب، كالإبل في الصحراء، والخيول في السهول والهضاب والبغال في المناطق الجبلية، وإلى جانب ذلك انتشرت تربية الدجاج والحمام والنحل والأرانب، وشهد نشاط تربية المواشي قفزة كبيرة في عهد الموحدين[2]، كما اهتمت بالثروة السمكية وكان الصيادون يصطادون كميات كبيرة من الأسماك في مراكش[3].

واهتم الخلفاء الموحدون بنظام الزرع أو الغراسة التي تكون قرب الأنهار، فنجد مثلا مدينة فاس التي يشق وسطها نهر عظيم، عنيت هذه المنطقة بالفلاحة لكثرة الأعين فيها[4]، كما كانوا يقومون بغرس بعض النباتات في أوقات معينة حيث يقول ابن العوام: "الذي يغرس في الخريف يكون أكثر حملا من الذي يغرس في الربيع"، والأشجار التي عودها صلب مثل: الزيتون، والبلوط والعُنَّاب، الفُستق وشبيهها يغرس في فصل الشتاء[5].

أما عن المنتوجات التي تميزت بها بلاد المغرب فنجد في مقدمتها: الحبوب، القمح، وقد زرع بمناطق متفرقة من أرض المغرب الأقصى، ففي المناطق الشمالية من البلاد جاءت زراعة القمح، حيث كان أكثر مزروعات أهل طنجة من القمح، ومدينة أزيلي أيضا كان لها حظ وافر من القمح، كذلك مدينة البصرة ومدينة كرت كان أهلها يقومون بزراعة القمح، والأمر ذاته بالنسبة للمناطق الشرقية والجنوبية عرفت زراعة القمح نشاطا واسعا، فبلاد السوس نجد بها الكثير من الحنطة وكذلك الأمر بالنسبة لسجلماسة التي وصف قمحها

[1]– خديجة بورملة، التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في حوض البحر المتوسط من القرن السادس الهجري إلى التاسع الهجري 12–15م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه، علوم في التاريخ الوسيط، جامعة وهران، 2017–2018م، ص: 67.

[2]– محمد بن ساعو، التجارة والتجار في المغرب الإسلامي ق 7–10هـ/13–15م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2013–2014م، ص: 23.

[3]– حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، المرجع السابق، ص: 253.

[4]– أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، الجعرافية، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، دب، دط، ص: 115.

[5]– أبي زكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام الإشبيلي، الفلاحة الأندلسية، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، 1433هـ/ 2012م، دط، ج1، ص: 597.

بالحب الرقيق الذي يسع المُدّ[1] بخمسة وثمانون حبة، وشهد عهد الموحدين وفرة من الكميات الضخمة من القمح والشعير[2].

كما اعتنى الأندلسيون بزراعة الحبوب لخصب تربتها وكثرة أنهارها وزرعت هذه الحبوب بكثرة في منطقة جيان وكانت مزارع القمح والشعير وغيره تمتد لمسافات طويلة في شرق الأندلس في نواحي أبذة ومرسية والمرية، وفاقت شنترين من مدائن أشبونة على نهر التاجة الجميع في جودة القمح والشعير، حيث ينموان في مدة قصيرة ويمتاز بوفرة إنتاجه، أما منطقة يابرة كان أكثر محاصيلها الحبوب والبقول[3].

الذرة وأنواع من الحبوب الأخرى، زرعت الذرة بسجلماسة كذلك زرع السمسم وغيره من البقول بمنطقة أغمات وزرعت الحبوب أيضا بمنطقة طنجة، أما الأرز فكانت زراعته قليلة، فزرع بمنطقة السوس.

أما القطن[4] فقد كان يزرع في المناطق المنخفضة من سطح المغرب وقد اهتم العرب بإدخال زراعة القطن إلى المغرب، ومنه انتقلت زراعته إلى الأندلس[5].

أما قصب السكر فقد كثرت زراعته بمدن متفرقة من المغرب الأقصى، فزرع بسبتة ولكثرته كان يحمل إلى ما جاورها من المدن والقرى، وكذلك اشتهرت مدينة أغمات بزراعتها لقصب السكر وكذلك بقرية تارودانت من بلاد السوس وصفها صاحب كتاب الاستبصار بقوله: "وهي أكثر بلاد الله قصب سكر، وفيها معاصر السكر كثيرة، وكذلك مدينة أنجلى وهي قاعدة بلاد السوس كثرت بها زراعته، وكان أكثر شرب أهلها إنما هو قصب السكر[6]،

---

[1]- المد: هو حفنة باليدين من كفي وسط الرجال. ينظر: أبو العباس أحمد العزفي السبتي، إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمدّ، تخر ودر: محمد الشريف، السلسلة الأندلسية، دس، د.ط، ص: 67.

[2]- حسن علي حسن، المرجع السابق، ص: 240.

[3]- عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص ص: 165-166.

[4]- أمني توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، دار العربية للكتاب، دب، 1997م، د.ط، ص: 134.

[5]- حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص ص: 241-242.

[6]- المرجع نفسه، ص: 242.

وكثرت زراعته في إقليم السوس بجنوبي المغرب الأقصى[1]، وذلك لكثرة الأنهار التي تجري بهذه الأماكن، كما اشتهرت الأندلس أيضا بزراعة قصب السكر[2].

أما الزيتون فهو من المحاصيل الوفيرة بالمغرب، وقد اهتم الموحدون بغرسه في أكثر من مدينة[3]، وعرفت مكناسة بالزيتون[4] والعنب أيضا[5]، حتى سميت بمكناسة الزيتون، وقد كثر محصول الزيتون بمدن مكناسة وفاس والرباط وتازا وكان هذا راجع إلى تشجيع الموحدين على زراعته والاعتناء به، وكذلك عرفت[6] زراعته بفاس[7]، كما أشار المقدسي بقوله بقوله "وهو بلد كثير الخيرات والتين والزيتون، وكذلك كثرت زراعته بمدينة درعة".

كما اهتم الموحدون بزراعة الكتان، ولم يكن محصوله بوفرة بقية المحاصيل، حيث زرع بقرية أم البيعة، وكذلك بمدينة كِسِرة، وأشار صاحب الاستبصار بأنها كانت تعرف ببصرة الكتان لأن أهلها كانوا يتبايعون الكتان[8].

أما الحناء والكمون والكراوية فقد كثرت زراعتها بمناطق درعة وسجلماسة[9]، ففي منطقة درعة تكثر زراعته ومنها تجلب إلى جميع البلد لطيبها وله ميزة في البيع على سواها، كما أن شجر الحناء ينبت على جانبي درعة وانتشرت أيضا زراعة الكمون والكراوية والنيلج

[1]– أمين توفيق الطيبي، المرجع السابق، ص: 133.

[2]– حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، دس، دط، ج4، ص: 379.

[3]– حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص: 142.

[4]– مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص: 187.

[5]– الزهري، المصدر السابق، ص: 115.

[6]– حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص: 142.

[7]– أمين توفيق الطيبي، المرجع السابق، ص: 134.

[8]– حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص ص: 243-244.

[9]– أمين توفيق الطيبي، المرجع السابق، ص: 134.

وهو النيلة ونظرا لخصوبة التربة أنتجت لنا محاصيل متنوعة من القمح والشعير والقطن وقصب السكر والزيتون والحناء والكمون والذرة والكتان...وغيرها[1].

وتعددت بالأندلس أنواع أشجار الفواكه وكان الاهتمام كبيرا بمعالجة أصنافها والعناية بها من أمراض النباتات، فكثرت بها الجنان والبساتين والحدائق، حتى اشتهرت بها أنواع من الفواكه لا يوجد لها نظير من ناحية حلاوة الطعم وذكاء الرائحة، حتى حدائقهم بالمنازل لم تكن تخلوا من بعض أشجار الفاكهة، فكانت بساتين التين القوطي والشعري بإشبيلية ممتدة على طول الطرف، وكثر إنتاج الفواكه من الرمان والخوخ والجوز والكمثرى والتفاح والعنب، فكان الرمان يزرع في مرسية وفي كور بلنسية تزرع الكمثرى وامتاز تفاح شنترين بكبر حجمه وجودة مذاقه[2].

واشتهرت مدينة مالقة بكثرة الفواكه وكذلك الأمر بالنسبة لغرناطة التي تعددت وتنوعت بها الفواكه التي شهدت زراعة الجوز الخوخ والكمثرى والعنب والتين والرمان[3]...

كما يعتبر المغرب الأوسط إقليم زراعي بالدرجة الأولى، حيث عرف أنواعا مختلفة من الفواكه من تين وسفرجل، وجوز وعنب، وتفاح وغيرها، وذلك لخصوبة تربته[4]، وشهدت منطقة المغرب الأقصى فترة من الازدهار في زراعة الفاكهة بأنواعها المختلفة، حيث اهتم الموحدون بغرس البساتين المختلفة التي كانت تنتج الثمار المختلفة، من التمر والعنب والتين والرمان والتفاح على أصناف وكذلك الكمثرى والمشمش والبرقوق والخوخ والتوت بأنواعه بالإضافة إلى فاكهة الليمون والبطيخ، والنارنج، الجوز، اللوز، وكانت العاصمة مراكش أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وفواكه، كما أن مدينة فاس أنتجت مختلف الفواكه والثمار وكان بها تفاح حلو يعرف بالأطرابلس حسن الطعم والرائحة وكان بها التين أيضا، بالإضافة إلى

[1]– حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص: 244. وينظر: أمين توفيق الطيبي، المرجع السابق، ص: 134.

[2]– عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص ص: 167-168.

[3]– سامية مصطفى محمد مسعد، المرجع السابق، ص ص: 113-115.

[4]– خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 69.

جبل غمارة الذي كان كثير الأعناب والفواكه والأمر ذاته بالنسبة إلى منطقة السوس التي عرفت بكثرة بساتينها وفواكهها[1].

ويضاف إلى الثروة الزراعية من المحاصيل والفواكه تلك الغابات المتفرقة في البلاد لتنوع السطح والمناخ وهذه الغابات أمدّت بكميات وفيرة من الأخشاب التي استخدموها في كثير من الصناعات وخاصة السفن.

إضافة إلى هذه الثروات حظيت البلاد بثروة حيوانية كبيرة[2]، فقد اشتغل أهل غرناطة بتربية المواشي والرعي، فتربية الحيوانات التي تساعد على حرث الأرض، كالبقر والجاموس، وقد قام أهل مالقة أيضا بتربية الماشية والحيوانات الأخرى[3]، كالغنم والبقر، والخيل والبغال[4]، التي كانت وسيلة للمواصلات الرئيسية، أما الماشية فكانت تربى للحصول على منتجات الألبان كالجبن والزبد والسمن والحصول على اللحوم والجلود، كما قام أهل غرناطة بتربية الدواجين والطيور وخاصة الحمام[5].

كما أشار صاحب الاستبصار إلى أهل جبل فازاز واشتغالهم بالرعي بقوله: "ومن الجبال المشهورة ببلاد المغرب فازاز، وهو جبل تسكنه أمم كثيرة من البربر... وهم أهل كسب من الغنم والبقر والخيل" وانتشرت المراعي في منطقة أغمات واشتهرت بجودة خيولها بمنطقة تلمسان[6]، حيث كانت تسمى الخيل الراشدية ولها فضل على سائر الخيول، وهكذا عاشت في المنطقة أنواع من الحيوانات المستأنسة كالخيل والبغال والحمير والأغنام والجمال والفنك، أما بالنسبة للطيور الداجنة فقد ربى سكان المنطقة أنواعا منها: الأوز، الحمام، الدجاج[7].

---

[1]– حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص ص: 235–238.

[2]– المرجع نفسه، ص ص: 248–249.

[3]– سامية مصطفى محمد مسعد، المرجع السابق، ص: 117.

[4]– عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص: 168.

[5]– سامية مصطفى محمد مسعد، المرجع السابق، ص: 117.

[6]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 202.

[7]– حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص ص: 250–252.

وانتشرت تربية النحل في بلاد المغرب[1]، بشكل واسع فكثر إنتاج العسل خلال القرن السادس هجري، حيث كثر إنتاج العسل في العهدين المرابطي والموحدي خاصة في ساحل تلمسان ومنطقة البصرة وقادة وأرض دكالة وبلاد حاجة التي اختصت بعسلها الأبيض، وفي البلاد الأندلسية، عمّ الإنتاج لاسيما، في جيان وقرمونة وقصر أبي دانس وباجة وشلب[2]، وبالتالي يمكن القول أن الزراعة شهدت ازدهارا ملحوظا في بلاد المغرب الإسلامي[3].

2- الصناعة:

ازدهرت الصناعة نتيجة لتوفر المواد الخام، مثل الحديد والأخشاب بالإضافة إلى المواد الخام الزراعية كالقطن والكتان وقصب السكر ومن أبرز تلك الصناعات صناعة قصب السكر، حيث كان يوجد بسلا الكثير من معاصر السكر[4]، ويقول صاحب الاستبصار الاستبصار أن بلاد السوس الأقصى عرفت معاصر كثيرة لقصب السكر نظرا لأنها أخصب بلاد المغرب وأكثرها فواكه وخيرات[5]، وتضاعف إنتاج السوس للسكر في فترة حكم الموحدين الموحدين وكثرة معاصره وبلغت أربعين معصرة في مراكش[6]، ولكن السكر السوسي يتميز بالجودة والصفاء والطيب، أما السكر المراكشي يتصف بنهاية البياض وكان مكررا وصلبا ولطيف المذاق[7]، وكان أهل السوس يفضلون العسل على السكر[8].

---

[1]- خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 72.

[2]- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص ص: 202-203.

[3]- سوادي عبدون محمد، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب الإسلامي من القرن 2هـ حتى نهاية القرن 7هـ، 7هـ، كلية التربية، جامعة البصرة، د.س، د.ط، ص: 327.

[4]- حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص: 62.

[5]- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق ، ص: 212.

[6]- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 240.

[7]- خيرة بلعربي، المسالك والدروب وأثرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي 5هـ-10م/11هـ16م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ، 2009-2010م، ص ص: 28-29.

[8]- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص: 20. ينظر: مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق ، ص: 117.

ويعود ازدهار الصناعة في هذه الفترة إلى استقرار أوضاع البلاد وتوفر المواد الأولية بالإضافة إلى الصناع[1]، وقد شجع الصناعة في ظل الموحدين ازدياد حاجة الدولة للصناعات العسكرية.

واستفادت الدولة الموحدية من المهرة في كل صناعة مثل أحمد بن باستة وابن الليث الصقلي في البناء وعمر بن مرجي الإشبيلي في الزخرفة والحاج يعيش المالقي في الهندسة الميكانيكي والمساحة[2]، فاهتموا بصناعة الأسلحة بجميع أنواعها التي كانت في غاية الإتقان الإتقان والتطور، ولقد استفادوا من الحروب العديدة التي كانوا يخوضونها دفاعا عن حوزتهم فاشتهرت الأندلس بصناعة آلات الحرب من الرماح والدروع وغيرها[3]، وتذكر المصادر أن مدينة فاس وحدها عرفت زمن يعقوب المنصور اثنا عشر مصنعا للمعادن[4]، واختصت قفصة بصناعة الأواني الذهبية وكانت بسطة والمرية داري صنعة بالأندلس واختصت مرسية وملقة بصناعة أواني الحفر والنحاس والحديد من سكاكين ومقصات مذهبة، وتميزت إشبيلية بصناعة الأسلحة والدروع وظهرت إيجلي التي اشتهرت بصناعتها النحاسية التي تصدر إلى السودان، وفي ميدان صناعة الأسلحة فقد تطور كثيرا، حيث أصبحت الأسلحة متنوعة ومختلفة، أيضا صناعة الخوذات والدروع والزرد بالإضافة إلى استعمال الكرات الحديدية الملتهبة في دك الحصون والمجانيق الكبار[5].

إن انتشار ظاهرة الرعي جعل الجلود أبرز منتجاتها، خاصة في البلاد الشرقية، حيث كان الجلد أبرز منتجاتها[6]، وقد تحولت قابس من مركز النسيج إلى مركز الدباغة الأساسي بدلا عن باجة، حيث اضطرب الأمن في جهاتها طوال القرن السادس[7]، والمدابغ عادة ما

---

[1]- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق ، ص: 213.

[2]- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص ص: 211-212.

[3]- يوسف اشباخ، المرجع السابق، ج2، ص: 248.

[4]- علي الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تخ: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1411هـ 1991م، ط2، ص: 44.

[5]- خيرة بلعربي، المرجع السابق، ص ص: 29-30.

[6]- المرجع نفسه، ص: 24.

[7]- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 229.

تكون خارج أسوار المدينة[1]، القديمة وقيام مراكز أخرى جديدة واستمرت الدباغة في كل من درعة وسجلماسة وأغمات التي احتفظت بهذه الصناعة على الرغم من أن تأسيس مراكش قد جذب الصناعات إلى العاصمة الجديدة، والمراكز الجديدة هي مراكش وسلا وفاس التي كان فيها أيام المنصور الموحدي 87 دارا للدباغة[2]، وحسب رواية الجزنائي 86 دارا للدباغين[3].

وكانوا عادة يستعملون القرمز في الدباغة، ولكن هذا لم يمنع من استعمال مواد محلية أخرى كثمر شجر التاكوت في درعة[4]، وكان يوجد بغرناطة مكان خاص بالدباغين عرف باسم باب الدباغين، حيث كان الدباغون ينزلون أطراف المدينة على ضفاف الأنهار إتقاء لرائحة صناعتهم، هذا وقد ازدهرت صناعة الجلود ولاسيما في مالقة، فصنعت نوعا من الجلود وهو السفن وهو خشن وغليظ كجلود الماشية، يستخدم في الصناعات الجليدية، فكانوا يصنعون منه الأغشية والأحزمة والحقائب والأحذية، كما خضعت هذه الصناعات لرقابة المحتسب فلا يباح للدباغ ببيع جلد إلا أن يكون قد خرج ماؤه وتحققت دباغته، ومتى يبس وطري وتكسر فهو غير جيد الدباغ، كما منع المحتسب صانع النعال من تغليظ حواشي النعل قبل خرزه وينهي المحتسب عن خلط جلد العنز مع جلد الضأن في قرق، ولا جراب ومتى وجد ذلك قطع، فإنه دس لا خير فيه[5].

وبالنسبة لمراكز المصنوعات الجلدية، فنجد في البلاد الشرقية اختصت بنزرت بصناعة الفراء الثمين من جلد طير الخواص، وفي بلاد الغرب كانت تلمسان مركز المصنوعات الجلدية التي يتجهز بها الفارس، وظهرت أزكى ولمطة في صناعة الورق اللمطية التي يبنو عليها السيف والرمح، وهي أكثر ما كان يستعمله الجيشان المرابطي

[1]– خير بلعربي، المرجع السابق، ص: 24.

[2]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص ص: 229.–230.

[3]– الجزنائي، المصدر السابق، ص: 44.

[4]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 230.

[5]– حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص ص: 138–139.

والموحدي، كما أن أهل البلاد الغربية كانوا يستعملون زاهي الجلود فرشا بدلا من البسط، وبرع أهل بجاية وفاس وإشبيلية وغرناطة في صناعة الأحذية من الجلود[1].

بالإضافة إلى صناعة الجلود، شهد القرن السادس انتشارا واسعا في الصناعات الخشبية، وظهرت مناطق جديدة لإنتاجها للضرورة العسكرية كإقامة الجسور على الأودية وإنشاء المراكب والقوارب[2]، وكان للضرورة العسكرية تأثير كبير على بناء السفن[3]، ووجدت مراسي البلاد الأندلسية التي كانت مركزا لإنشاء السفن الحربية والتجارية مثل: طرطوشة، وتفنت ودانية وبلنسية وقادس والمرية، كما اشتهرت المدن المغربية الساحلية مثل سبتة وطنجة بصناعة السفن، حيث أصبحت سبتة قاعدة للأسطول الموحدي ووسعوا دُورْ الإنشاء التي كانت قائمة في هذه السواحل مثل: بجاية[4]، وذلك لوفرة الخشب في مناطقها وكثرة الزفت والقطران في جبالها[5]، كما أنشئت معامل لصناعة السفن لكل من فاس وسلا والرباط[6]. والرباط[6].

ولقد اشتهرت تلمسان بصناعة كل ما يتعلق بركوب الخيل من أدوات خشبية، ولمطة بسروج الإبل، وغرناطة بمراوح الحلفا، وشريش بغرابيلها ومالقة بأطباق الخوص، ومرسية بالأسرة المرصعة، وإفريقية بالأقلام من قصب طبرقة وخشبها، وفاس بالمخروطات الخشبية وقد كان يدخل فاس كل يوم من خشب الأرز ما لا يحصى كثرة، وروي أن في ساحة قصر بن جامع الوزير الموحدي خمسمائة جارية يلعبن على خيول صنعت من الخشب[7].

كما تقدمت صناعة الحرير في إقليم غرناطة تقدما كبيرا ولاسيما في مدينة مرية، حيث انتشرت صناعة الحرير الموشي والديباج، وكان بالمرية أعداد كثيرة من الطراز، فقد

[1]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 230.

[2]– خير بلعربي، المرجع السابق، ص ص: 16–17.

[3]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 232.

[4]– خير بلعربي، المرجع السابق، ص: 17.

[5]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 232.

[6]– سامية مصطفى، المرجع السابق، ص: 126.

[7]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص ص: 233–234.

بلغت طراز الحرير فيها ثمانمائة طراز ويصنع بها من أنواع الثياب الكثير من: الديباج والسقلاطونى والأصبهاني والجرجاني والستور المكللة... [1].

وكانت مدينة تلمسان ومدينة داي وبلاد كراكة مراكز لصناعة المنسوجات القطنية والصوفية[2]، ويذكر الجزنائي أنه في أيام الخليفة الناصر الموحدي أنشأ 3766 مصنعا منها 3094 دارا للطرازة[3]، وذلك تشجيعا على ازدهار هذه الصناعة لضرورتها وحاجتهم إليها.

وفي القرن السادس كانوا يصبغون النسيج والصناعات الجلدية، وعرفوا الألوان الأولية والمركبة من لون أحمر وأسود وأبيض وأخضر وأصفر وجوزي وهو مركب الأخضر والأسود، ومن مواد الصباغة، النيلة والقرمز والزعفران ونظرا لقلته في البلاد الشرقية ألجأت أهلها إلى استحداث بديل له هو الطرطار الذي ينبت في الخمر ويصبغ به الصوف أحمر، واستخدم بعضهم الكبريت ليرد أكسية الصوف بيضاء، وعادة ما يصبغ الحرير في موضع إنتاجه، وكان الأندلسيون يتخذون من ذلك عيدا[4]، وقد بلغت مدينة فاس[5]، في عصر الموحدين 116 دارا للصباغة[6]، وعادة ما تكون دور الصباغة على الأنهار[7].

وتتصل صناعة الورق[8]، بالمنسوجات، لأن الورق كان يصنع في المغرب من القطن والكتان، وكانت مدينة شاطبة بالأندلس مختصة بهذه الصناعة[9]، وازدهرت صناعة الورق التي كان لها شهرة بمدينة فاس ومراكش وسلا وسبتة التي كان بها مصنع للورق[10]، حيث

[1]– سامية مصطفى، المرجع السابق، ص ص: 128–129.

[2]– حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص: 264.

[3]– الجزنائي، المصدر السابق، ص: 44.

[4]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 231.

[5]– حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص: 262.

[6]– الجزنائي، المصدر السابق، ص: 44.

[7]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 231.

[8]– عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص: 175.

[9]– خيرة بلعربي، المرجع السابق، ص: 23.

[10]– محمد المنوني، المرجع السابق، ص: 33.

يذكر الجزنائي 400 معملا لإنتاج الورق أيام يعقوب المنصور[1] وابن محمد الناصر والظاهر والظاهر أن مركز هذه المعامل هو الذي كان يعرف في فاس بالكاغدين[2].

كما عرفت الأندلس صناعة الأرحاء (المطاحن) التي تديرها المياه أو الحيوانات أو الرياح[3]، وقد اتخذ الغرناطيون الأرحاء المائية لكثرة المياه في إقليم غرناطة، بالإضافة إلى ذلك عرفت غرناطة صناعة الأدوية والعطور بفضل الأعشاب الطبية التي كانت متوفرة بجبل شلير، هذا وقد عرفت أيضا الصناعات الفخارية والخزفية التي تركزت في إقليم غرناطة، حيث تفوقت بعض مدن الإقليم في صناعة الخزف والأواني الفخارية كمالقة وبرجة[4]، وكانوا ينتجون نوعا من الزجاج يعرف بالفسيفساء ونوعا آخر يعرف بالذليجي حيث حيث كانوا يستخدمونه في زخرفة المنازل[5]، شهدت فاس 11 دارا لعمل الزجاج أيام المنصور المنصور الموحدي[6].

كما استخدموا الزيت في مجالات مختلفة مثل: الأطعمة وإضاءة البيوت والمساجد والحمامات وسائر المرافق، وكانوا يستخرجون الزيت من الزيتون والكتان، أما السمسم فكان قليلا، وأهم مناطق إنتاج زيت الزيتون في الريف إقليم الشرق بإشبيلية، وعُصر أيضا في قرية شوذر، من أعمال جيانو تعرف بغدير الزيت لكثرة زيوتها، كما عصر أيضا في غرناطة وبلنسية، ولبلة وشريش وقرمونة وميورقة ودانية وقبرة، وهناك ثلاثة أنواع من زيت الزيتون تبعا لطرق استخلاصها وهي: زيت الماء، وينتج من طحن بسيط للثمار أو سلقها بالماء الساخن، وهو أفضل أنواع الزيوت، ثم زيت المعصرة، والنوع الثالث هو النوع المطبوخ ومن الزيوت الأخرى، زيت السمسم، الجوز، اللوز، والخروع[7].كما أشارت المصادر عدد المصانع التي أنشأت لعمل الصابون[8]، حوالي 47 دارا[1].

---

[1]– الجزنائي، المصدر السابق، ص: 44.

[2]– محمد المنوني، المرجع السابق، ص: 33.

[3]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 237.

[4]– خيرة بلعربي، المرجع السابق، ص: 31.

[5]– سامية مصطفى، المرجع السابق، ص ص: 136-137.

[6]– الجزنائي، المصدر السابق، ص: 44.

[7]– صلاح الدين، المرجع السابق، ص ص: 48-49.

[8]– حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص: 262.

المبحث الثاني: التجارة في العهد المرابطي:

شهد النصف الثاني من القرن 5هـ/11م تفوق أساطيل أوروبا وسيطرتها على البحر المتوسط، وصار الأوروبيون الغربيون سادة كورسيكا وسردينيا وصقلية وجنوب إيطاليا، لكن في نفس الوقت كانت الدولة المرابطية تبسط سلطاتها على الأندلس وتزيد من سلطاتها البحرية إلى أن أصبح الأسطول يلعب دورا بحريا كبيرا خصوصا بعد ضم سرقسطة سنة 503هـ/1110م، حتى أصبح المرابطون سادة الساحل الشرقي من الأندلس، ولم يبق أمامهم إلا السيطرة على الجزر الشرقية التي فتحوها سنة 509هـ/ 1116م، ومثلت هذه الفترة العصر الذهبي للأسطول المرابطي[2].

تمتعت التجارة في عهد المرابطين بالنشاط الكبير، حيث ظهرت في بلاد المغرب والأندلس أسواق ذات شهرة بلغت الآفاق، قصدها تجار العالم من كل صوب، فقد أصبحت سجلماسة مركزا من أهم مراكز التجارة عند أطراف الصحراء، وكانت تجارتها تحمل إلى الشرق عن طريق موانئ المغرب، كما برزت مدينة أودغشت عند الطرف الجنوبي من الصحراء كسوق تجاري عظيم، وأصبحت تجارة نول لا تقل عن سجلماسة وأودغشت، فأصبحت دارا لِسَكْ النقود بسبب وفرة التبر الذي تجلبه القوافل من بلاد السودان، وفي بلاد الأندلس نهضت مدينة المرية لتنافس أسواق المغرب في ميدان التجارة الدولية[3].

ومما ساعد على ازدهار التجارة الخارجية في عهد المرابطين نمو البحرية المرابطية حتى أصبحت تنافس جمهوريات إيطاليا وتنافس النورمان، واستطاع المرابطون أن يبسطوا حمايتهم على الحوض الغربي من البحر المتوسط، وقام أسطولهم بدور عظيم في تأمين تجارة المغرب الذاهبة إلى الأندلس أو إلى الأسواق العالمية الأخرى، حيث كان بمقدورها أن تعلن على القراصنة حربًا شعواء وتسهر على حراسة التجارة[4].

---

[1]– الجزنائي، المصدر السابق، ص: 44.

[2]– خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 89.

[3]– حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، د.س، د.ط، ص: 400.

[4]– المرجع نفسه، ص: 401.

وقد استطاعت الدولة الموحدية بعد أن نجحت في توحيد كل أقطار المغرب، أن تقر الأمن والسكينة في ربوعه، وأن تسهر على حماية الطرق، وتأمين المسالك فأمين التجار على أنفسهم، واطمأنوا، وأقبلوا بتجارتهم على أسواق البلاد في طمأنينة وثقة[1].

وقد بلغت التجارة الدولية في عهد المرابطين شأنا عظيما، وازداد إقبال أوروبا على تجارة المغرب، ومما يدل على ذلك شيوع الثقة بالدينار المرابطي، وارتفاع قيمته بسبب كثرة المعاملات والتداول حتى قيل إن الدينار المرابطي وصل إلى القسطنطنية، وكاد أن يصبح عملة دولية[2].

لقد ساهمت الكثير من العوامل في نشاط الحركة التجارية في عهد المرابطين كتطبيقهم سياسة مضاعفة الإنتاج الزراعي والصناعي، إضافة إلى الأمن والاستقرار[3]، وبالتالي ساهم هذا في إنشاء حركة تجارية نشيطة ساهمت في تقوية الاقتصاد المرابطي.

لكن هذا النشاط التجاري والازدهار الاقتصادي أصيب بنكسة شديدة في نهاية عهدهم نتيجة للفتن التي عمت المغرب والأندلس، وسنوات الجفاف المتتالية والقحط وشل الصناعة فعمّ الكساد وشاعت البطالة واشتدت المجاعة والغلاء[4].

1- عوامل ازدهار التجارة:

شهدت التجارة في عهد الموحدين تطورا وازدهارا كبيرين وهذا راجع إلى السياسة التي اتبعتها من أجل النهوض بالاقتصاد عامة والتجارة خاصة ومن العوامل التي ساعدت على تطورها ما يلي:

[1]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص: 100.

[2]- حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص: 403.

[3]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص: 129.

[4]- عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص: 212.

أ- **الأمن والاستقرار:**

انتشر الأمن والاستقرار السياسي بعد سيطرة الموحدين على زمام الأمور في بلاد المغرب والأندلس فوحدت البلاد تحت سلطة واحدة وتم القضاء على المعارضين والطامعين في المغرب والأندلس بدخول ابن همشك في طاعة الموحدين "ولم يزل ابن همشك يستغيث إلى الموحدين أيدهم الله من عدوه ويستنصر بهم عليه ويستصرفهم إلى غزوه" والقضاء على ثورة ابن مردينش[1].

ب-**تشجيع النشاط التجاري:**

شجع الموحدون الحركة التجارية بوضع مجموعة من التنظيمات والتعليمات الصارمة التي تحمي التجارة والعاملين فيها من كل أنواع الاعتداء وتضبط طرق التعامل فيها.

وتعتبر رسالة عبد المؤمن بن علي التي أرسلها إلى العدوة الأندلسية مخاطبا فيها الأشياخ والأعيان وعامة المجتمع بحماية التجار وتأمينهم، وحث على تنظيم البريد والحرص على المخازن والعدل بين الناس، وتوعد فيها بقتل كل من يخالف أوامره[2]، ويعتدي على التجار ويقطع الطرق

قسطاس عدل لا يميل فإن رأى ميل الشريعة أمها فأقامها[3]

كما أن الموحدين قاموا بشن حملات على القبائل التي تعتدي على التجار[4]، مما حدّ حدّ من ظاهرة قطاع الطرق.

[1]- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1964، ط1، ص: 308.

[2]- أحمد عزاوي، المرجع السابق، ج1، ص: 61.

[3]- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص: 368.

[4]- الحميري، المصدر السابق، ص: 67.

ومن أجل تشجيع النشاط التجاري قام الخليفة الموحدي عبد المؤمن بمنع فرض المكس[1]، والمغارم والقبالات[2]، وتحجير المراسي[3]، على التجار عند دخولهم الأسواق فهي أعظم الكبائر جرما وإفكا وأن من قام بتلك الأصناف المظلمة، يتولاه أحد هنالك من البشر أو يأمر بشيء من ذلك الفعل المستنكر لنعاقبنه بمحو أثره عقابا يبقى عظة لمن اتعظ وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ[4].

كما شجع الموحدون التجارة بمنح قروض للطلبة يتجرون لها فأسلف من مال المخزن لكل واحد منهم ألف مثقال فاكتسوا منها وأصلحوا بها على أنفسهم ولم يأخذها منهم أبدا[5].

ولتنشيط التجارة قام الموحدون ببناء الأسواق والحوانيت فأوثق البنيان وأحسن نوع في ذلك جعل له أربعة أبواب كبار، فلما كملت الأسواق بحوانيتها بالبناء نقلت إليها بسوق العطارين والخياطين، وتزاحم الناس في كرائها ونما الخراج نموا غاليا[6].

وقد عمل الخلفاء الموحدون على تشييد الطرق وحفر الآبار وإقامة القناطر والجسور على الأودية، وإجازة العساكر عليها وتسهيل حركة التجار[7]، وأنشأوا الفنادق وأحواض الماء والآبار لينتفع بها السايلة ويحصنون الحدود، ويزودون المدن بالقلاع والثكنات والمخازن، خاصة في البقاع المنعزلة القليلة السكان[8].

---

[1]– المكس: الضريبة التي تؤدى على السلع كإكتراء الأسواق والارحاب واخذ الفوائد على الأبواب والقاعات. ينظر: الونشريسي ابو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ، د.ط، ج2، ص: 492.

[2]– القبالات: القبالة هي في الأصل ضريبة تدفع لبيت المال، وقد أطلق اللفظ على الضرائب الزائدة على ما يقضي به الشرع، والتي كان يؤديها أهل الحرف. ينظر: ابن القطان، المصدر السابق، ص: 193.

[3]– تحجير المراسي: يعني منع التصرف فيها والحجر على حرية الانتفاع بها. ينظر: ابن القطان، المصدر نفسه، ص: 193.

[4]– المصدر نفسه، ص: 194.

[5]– ابن عذارى، المصدر السابق، قسم الموحدين، ص: 81.

[6]– ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص: 396.

[7]– المصدر نفسه، ص: 370.

[8]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص: 253.

كل هذه العوامل والتنظيمات عملت على ضمان العمل التجاري، وأعطت دفعا قويا لتنشيط المبادلات التجارية وساهمت في إزالة العراقيل التي أثرت عليها سلبا كالضرائب والمكس التي كانت تفرض وتحد من نشاطها.

2- البيوع المتداولة في المبادلات التجارية:

كانت المبادلات التجارية تتم بعدة أساليب حسب الظروف والبيئة المتعامل فيها، فقد كانت تتم نقدا بمبادلة سلعة بما يقابلها من القيمة المالية والنقدية، وهذه المعاملة أساس التعامل التجاري[1]، ونظام المقايضة، وهي استبدال سلعة بسلعة أخرى دون وسيط نقدي، حيث انتشرت بكثرة في أسواق بلاد المغرب الموجودة في البادية وفي المناطق النائية البعيدة عن المدينة لقلة التعامل بالنقد[2]، وطريقة السلف، حيث يكون نقدا، أو نقدا بسلعة، أو سلعة بأخرى، وقد عرفت هذه المعاملة انتشار واسعا خاصة في سنوات القحط فكانوا يقومون بجمع الأقوات والأطعمة ويشترونها بالدين إلى الحصاد، فإذا حل الأجل وعجزوا عن سداد الدين بالدنانير، يضطر الدائنون إلى الحصول على جزء من المحصول مقابل قيمة الدين[3].

إضافة إلى نظام الحوالة فقد أشارت إحدى النوازل إلى أن نظام الحوالة كان معروفا في المغرب، فقد ورد في ذلك أن رجلا كتب لصهره بمدينة قفصة بإفريقية وصية بأن يتسلم مبلغا من المال من شخص فأحاله الأخير على شخص آخر.

وقد اختلفت البيوع وتعددت منها نظام القراض ونظام الشركات التجارية والوكيل التجاري ونظام الرهن ونظام المعاوضة والوديعة والكراء والمزايدة والدلالة..ألخ، لكن الأربعة الأولى السالفة الذكر كانت أكثر شيوعا وانتشارا[4].

---

[1]- الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص: 130.

[2]- المصدر نفسه، ج5، ص: 88.

[3]- نفسه، ج6، ص: 90.

[4]- نفسه، ج6، ص: 88.

3- آليات المبادلات التجارية:

استخدمت في عملية التبادل التجاري وسيلتين هما: المكاييل والموازين لضبط المقدار، والعملة كأداة لضبط قيمة البضاعة وقد ساهمت هذه الآليات في ضبط التجارة الموحدية على الصعيد الداخلي والخارجي.

أ- الموازين والمكاييل:

تعددت أشكالها في بلاد المغرب والأندلس، واختلفت مقاديرها وطرق التعامل بها وضبط قياساتها من منطقة إلى أخرى، حيث اختص كل إقليم بقياسات تخصه[1]، ومن أشهر ما استخدم من ضوابط الوزن في هذه[2] الفترة الأوقية[3]، وكان السعر في هذه الأيام رخيصا، فالدقيق الربع[4] الواحد منه بدرهمين، والشعير خمسة وعشرون مدا بدرهم[5] واللحم ستون أوقية بدرهم، وأمر لأهل المسائل بقضاء حاجاتهم، والإفضال عليهم[6]، كما استخدم المختوم وهو الصاع بذلك لأن الأمراء والولاة كانوا يجعلون عليهم خواتمهم لئلا يزاد فيه أو ينقص، والصاع أربعة أمداد بمد النبي (ص) [7]، كما استعمل الوسق والوسق ستون مختوما وقال في الحديث "والوسق ستون صاعا"[8]، ووسق الوسق يساوي 60 صاعا[9]، إضافة إلى القفيز قال

---

[1]- البكري، المصدر السابق، ص ص: 26.27.

[2]- مؤلف مجهول، تلخيص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعية وتبيين مقاديرها، نشر محمد الشريف، مجلة التاريخ العربي، عدد11، 1420هـ1990م، د.ط، ص: 128.

[3]- الأوقية: هي تسمية لقدر ما من الفضة لا لقدر من الذهب. ينظر العزفي، المصدر السابق، ص: 78.

[4]- الربع: جمع أرباع يزن 25 رطلا. ينظر: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص: 352. والرطل يساوي 504 غرام بالوزن الحالي، والربع تكال به السوائل مثل العسل والخل واللبن. ينظر: أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي، في آداب الحسبة، النشر ج.س. كولان، وليفي بروفينسال، باريس، 1930، د.ط، ص: 13.

[5]- المدّ: جمعه أمداد، وهو قدر ما تمتد به اليدان من العطاء، وقيل أنه ملء كفي الإنسان العزفي، المصدر السابق، ص: 126.

[6]- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص: 352.

[7]- العزفي، المصدر السابق، ص: 128.

[8]- المصدر نفسه، ص: 155.

[9]- ابن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تح: حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ع: 261، 1378هـ/1958م، مج6، ص: 146.

ابن حبيب: "في كل قفيز عشرة آصع، وهي أربعون مدا بمد النبي (ص)[1]، والمثاقيل استخدمت سنة 568هـ، حيث خرجت البركة لجميع الموحدين والعساكر المرتزقين للفارس الكامل خمسة مثاقيل ولغيره أربعة مثاقيل[2] وللراجل الكامل مثقالان[3].

ونظرا لعدم وجود وحدة قياس موحدة في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس ظهرت الاضطرابات في المعاملات التجارية فقد ذكر السقطي في رسالته أخبار الباعة والصناع بالأسواق وغشهم في الكيل والميزان وبخسهم واستعمالهم الخدع للناس في معاملتهم[4]، الأمر الذي جعل الخلفاء الموحدين يطبقون إجراءات صارمة لفرض النظام على مستوى الأسواق، فزادت مهمة المحتسب في الأسواق، وفرضت أنواع من الموازين والمكاييل، وختم السلع بطوابع وإشارات لتمييزها عن غيرها[5]، الأمر الذي أدى إلى قلة الشكاوى والنزاعات في الفترة الموحدية.

ب- العملة:

إضافة إلى وسائل الكيل والميزان، تعد العملة الآلية الأساسية الثانية في مجال المبادلات التجارية، ومن العوامل التي ساعدت على توفرها السيطرة على طرق تجارة الذهب المستورد من السودان ووفرة هذه المادة بالمنطقة، إضافة إلى وفرة مناجم الفضة والنحاس في المغرب والأندلس والتي استخدمت في ضرب النقود، إضافة إلى اعتناء الدولة بتوفيرها على الساحة الاقتصادية، الأمر الذي دفع بعجلة التجارة الداخلية والخارجية إلى الرواج والازدهار[6].

---

[1]- العزفي، المصدر السابق، ص: 157.

[2]- المثاقيل: يزن المثقال الموحدي أربعة غرامات و729 من الذهب. ينظر: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص: 424.

[3]- المصدر نفسه، ص: 424.

[4]- السقطي، المصدر السابق، ص: 01.

[5]- المصدر نفسه، ص ص: 12-18.

[6]- خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 168.

وتعتبر العملة المرابطية أساسا للعملة الموحدية فيما بعد، حيث بقي الدينار المرابطي العملة المتداولة في بلاد المغرب بعد سقوط المرابطين لمدة من الزمن، فقد صنع الأمير يوسف بن تاشفين دار السكة[1] بمراكش وضرب فيها السكة بدراهم مدورة زنة الدرهم منها درهم وربع سكة من حساب عشرين درهما للأوقية، وضرب الدينار الذهبي باسم الأمير أبي بكر بن عمر[2].

فقد لقي الدينار المرابطي رواجا كبيرا في بلاد المغرب والأندلس بل وتجاوز الإطار الجغرافي للدولة المرابطية إلى المدن الأوروبية وأصبح مثالا يحتذى به.

العملة الموحدية: أثناء خلافة عبد المؤمن بن علي كان أول ظهور للعملة الموحدية، مع عدم تثبيت ذكر تاريخ صدورها إلا على سبيل الاجتهاد والاستنتاج، يرى بعض الباحثين أن تاريخ صدور الدينار المؤمَني في سنة 540هـ، بعد إحكام سيطرته على المدن التي كانت تحوي دور ضرب السكة مثل فاس وتلمسان وسبتة[3].

وقد تنوعت العملة الموحدية من حيث الشكل والوزن والتسمية والنسبة فقد كانت تنسب إلى الخليفة الذي ضربت في عهده، فكانت هناك الدراهم المؤمنية نسبة إلى الخليفة عبد المؤمن[4]، وهناك الدنانير اليعقوبية نسبة إلى الخليفة أبي يوسف يعقوب[5].

وقد سعت الدولة الموحدية إلى توحيد العملة في بلاد المغرب والأندلس لوضع حد للفوضى الناتجة عن تعدد العملات في البلاد الواحد، ومن أجل تسهيل العمليات التجارية الداخلية والخارجية.

---

[1]– السكة: وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور وكلمات مقلوبة، ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج تلك النقوش. ينظر: ابن خلدون، المقدمة، مرا: هيثم جمعة هلال، ط.1، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، لبنان، 2007م.، ج1، ص: 322.

[2]– ابن عذارى، المصدر السابق، قسم الموحدين، ج4، ص: 22.

[3]– Hazard, Harry, (Williams), Numismatic History of late mediaval north Africa, New York, 1952, p 135.

[4]– ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، المصدر السابق، ص: 124.

[5]– ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص: 392.

كانت العملة الموحدية أساسا للمعاملات النقدية مع بعض الأقطار الأوروبية التي لا تشترط إعادة سك العملة الإسلامية، فقد نالت العملة الموحدية الذهبية شهرة دولية، كما عرف الدينار الموحدي باسم لاماسمودينا Lamasmodine وظلت العملة الموحدية متداولة في الأسواق الدولية وقلدوها وضربوا نقودا على شاكلتها عرفت باسم الميلاريسي Milliares[1].

4- الطرق والمسالك التجارية ووسائل النقل:

لقد استلزم الإنتاج الوفير والمتنوع في مختلف المجالات الفلاحية والصناعية تسويقها إلى مناطق الاستهلاك سواء داخل البلاد أو خارجها، ولا يتم ذلك إلا عن طريق منافذ تستخدم في ترويج التجارة، فكانت الطرق التجارية البرية والمسالك البحرية والنهرية، الرابط الأساسي بين مراكز الإنتاج ومناطق الاستهلاك.

وقد ساعدت مجموعة من العوامل في رسم خارطة الطرق التجارية في بلاد المغرب، على المستوى الداخلي وما يربطه منها بالمناطق الأخرى على المستوى الخارجي.

فالعامل الاقتصادي يتمثل في مرور أغلب الطرق التجارية على المدن البارزة التي تتوفر على مصادر الإنتاج، فهي مراكز للتسويق الداخلي والخارجي كثيرة الصادرات والواردات، وكانت كل من سجلماسة وفاس وتلمسان ووجدة من أهم المدن المحددة لخارطة الطريق في هذه الفترة[2].

إضافة إلى العامل الطبيعي الذي خضعت له الطرق والمسالك التجارية بصورة كبيرة، حيث حددت خريطة الطرق التجارية وفرة الآبار كمصدر رئيسي للمياه للقوافل التجارية المارة في المناطق الجافة والحارة، بالإضافة إلى المراعي ووفرة المزارع والثمار والفواكه والأشجار والأنهار[3].

[1]- خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 164.

[2]- البكري، المصدر السابق، ص: 148.

[3]- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 344.

وعليه يمكن تفصيل الطرق والمسالك التجارية الرابطة بين أقاليم المغرب وبلاد الأندلس على المستوى الخارجي كما يلي:

أ- المسالك البحرية:

لعبت المسالك البحرية دورا كبيرا في ترويج التجارة الخارجية للدولة الموحدية سواء الصادر أو الوراد منها إلى بلاد المشرق الإسلامي والمدن الأوروبية[1].

وقد اعتنى الموحدون بهذا النوع من المسالك نظرا لأهميتها فقاموا بترميم الموانئ القديمة وإعادة الحركة والنشاط إليها، فأصبح الساحل الإفريقي يزخر بمجموعة من الموانئ والمراسي منها المهدية بترنس والقيروان وسوس وبجاية ووهران وسبتة وسلا وطنجة وغيرها[2].

وقد ارتبطت بلاد المغرب ببلاد الأندلس عبر مسلك تجاري يمر عبر مضيق الزقاق[3]، انطلاقا من ميناءين رئيسيين في المنطقة[4]، وهما ميناء طنجة وسبتة الذين اعتبرا محطة هبوط وإقلاع في المنطقة[5]، حيث يقابله في العدوة الأندلسية مرسى جزيرة طريف، وميناء الجزيرة الخضراء، حيث تقدر المسافة بين الطرفين بثمانية عشر ميلا وبين سبتة والجزيرة الخضراء، واثنا عشر ميلا بين طنجة وجزيرة طريف[6]، وعبر الموانئ الأندلسية يتم نقل بضائع بلاد المغرب وبلاد المشرق الإسلامي وبلاد السودان إلى الممالك الاسبانية والمدن الإيطالية حيث يقدر طول هذا الطريق بثلاثة أشهر، كل ذلك عبر مضيق الزقاق الذي شهد

---

[1]- عبد العليم أنور، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جانفي 1978، ص: 70.

[2]- المرجع نفسه، ص: 71.

[3]- الزقاق: مجاز البحر بين طنجة والجزيرة الخضراء، حيث تقدر المسافة بينهما باثنا عشر ميلا. ينظر: ابن سعيد، المصدر السابق، ص: 26.

[4]- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص: 144.

[5]- المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج1، ص: 145.

[6]- ابن سعيد، المصدر السابق، ص: 26.

حركة تجارية كثيفة ومستمرة، ولعب دور الوسيط المهم في حركة التجارية الخارجية والربط بين ضفتي البحر المتوسط[1].

مع جزر المتوسط: تعد المسالك الجزرية من المسالك الرابطة بين أقاليم المغرب الإسلامي وأقاليم الضفة الجنوبية للبحر المتوسط في إطار التجارة الخارجية الموحدية، حيث تتوغل داخل البحر بعيدة عن الساحل، وهي قليلة الاستعمال بسبب المخاطر الناجمة عن توغل السفن داخل البحر وابتعادها عن الساحل، وتعرضها للغرق بسبب العواصف، ولم ينشط هذا المسلك إلا بعد إحداث تطوير للسفن من قبل النصارى في أواخر الفترة الموحدية، وقد تم الاتصال بين هذه الجزر والأقاليم عن طريق الموانئ والمراسي الموجودة على الساحل المغربي، إذ اعتبرت نقطة انطلاق ووصول إلى ما يقابلها في الضفة الأخرى، فكان المسلك الرابط بين تونس وسوسة والمهدية متصلا بما يقابله في الضفة الأخرى من أرض جزيرة صقلية، كما اتصلت كل من بونة وجيجل مع سردينيا وكورسيكا[2].

وقد كانت السفن التجارية المتوجهة نحو الضفة الجنوبية أو المتجهة نحو الساحل المغربي تتخذ الجزر الواقعة في طريقها مثل كورسيكا، سردينيا، صقيلية ثم إلى تونس أو المهدية ويسمى طريق الجزر، وهو الطريق المفضل لدى السفن المتجهة إلى المغرب والأندلس[3]، لكونه يوفر عدة مزايا فهو قليل الأخطار، الانتقال في مدة زمنية قصيرة من جزيرة إلى أخرى، وهو طريق مريح للتجار والمسافرين، حيث يسمح لهم بالاستراحة والتزود بالسلع والمؤن اللازمة[4].

فكانت كل من جزيرتي كورسيكا وسردينيا محطتين أساسيتين في الطريق الرابط بين ميناء جنوة وميناء بجاية وهران، وكانت كل من جزيرة كورسيكا وسردينيا، وصقلية محطات

[1]– موريس لومبار، المرجع السابق، ص ص: 86–87.

[2]– البكري، المصدر السابق، ص ص: 83–84.

[3]– ابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد الكيلاني الأندلسي، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.س، د.ط، ص ص: 2–5.

[4]– رشيد باقة، نشاط جنوة الصليبي والتجاري في سواحل بلاد المغرب من القرن الثاني إلى القرن الخامس عشر ميلادي، مذكرة لنيل شهادة دكتوراه، دولة في تاريخ العصور الوسطى للعلوم الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، 2006–2007م، ص ص: 25–26.

أساسية في المسلك التجاري البحري الرابط بين لمدن الإيطالية وعلى رأسها جنوة وبين ميناء في تونس والمهدية[1].

مع إيطاليا وجنوب فرنسا:

كانت سبتة كباقي الموانئ تقع في ملتقى الطرق البرية والبحرية، وقد لعبت دور المنفذ الرئيسي نحو عالم حوض البحر المتوسط والعالم المسيحي، فكان الاتصال بإيطاليا ومن جنوب فرنسا يتم عبر ميناء سبتة نحو المرية ومالقة لتحول الطريق إلى جزر البليار وبرشلونة ودانية، وصولا إلى الموانئ الفرنسية مثل مرسيليا ومونبولييه[2].

ظهرت بجنوب فرنسا كل من مرسيليا ومونبولييه وناربون التي قد اعتمدت في اقتصادها على نشاطها التجاري لما كانت تتمتع به من مواقع بحرية تساعدها على التفتح على بلدان حوض المتوسط عموما، وعلى بلاد المغرب خصوصا، لكن جذور العلاقات المغربية الفرنسية كانت غامضة حيث كان الجنويين هم الذين يشكلون الوسطاء بين السواحل الفرنسية والمغرب، ولم تنجح مرسيليا في تخطي الحاجز الإيطالي إلا ابتداء من القرن 7هـ/13م لتبدأ في التعامل التجاري المباشر مع المغرب[3].

ويعد القرن السادس هجري الثاني عشر ميلادي بداية لتأسيس التجارة الفرنسية البحرية في حوض البحر المتوسط، حتى بدأت مرسيليا تأخذ مكانها في المعاهدات التجارية المغربية، ففي النصف الثاني من القرن 6هـ/12م بدأ تجار مرسيليا ومونبولييه بعقد معاهدات تجارية مغربية، وهو الأمر الذي أشعر الجمهوريات الإيطالية بتزايد منافسة الأساطيل الفرنسية والتي جعلت من مرسيليا مركزا لها.

وهكذا بدأت مدن جنوب فرنسا تحتل المرتبة الثانية في نشاطها التجاري مع المغرب بعد المدن الإيطالية، حيث أصبحت تعتمد على نفسها شيئا فشيئا منذ النصف الثاني للقرن

[1]- رشيد باقة، المرجع السابق، ص ص: 265-266.

[2]- محمد الشريف، سبتة الإسلامية دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي (عصر الموحدين والمرينيين) تق: محد بن عبود، جمعية تيطوان، الرباط، 1995-2006، ط1، ط2، ص ص: 106-109.

[3]- المرجع نفسه، ص: 93.

7هـ/13م، فقد برزت كقوة بحرية لها أسطول كبير، حصلوا على امتيازات كبيرة منها: امتلاك أراضي زراعية، ومراكز تجارية في جزر البليار التي تمثل موقعا إستراتيجيا للتجارة مع المغرب[1].

ب- وسائل النقل البحري:

تعتبر السفن من أهم وسائل النقل في المجال التجاري، فهي ركيزة أساسية في إطار الأنشطة التجارية في مجال نقل البضائع والسلع خاصة لوجود مجالات مائية كبيرة محيطة بالأقاليم الجغرافية للدولة الموحدية كالمدن الإيطالية وبلاد المشرق الإسلامي، فلما ازدهرت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا أسطولا على أتم ما عرف وأعظم ما عهد، فكثرت أساطيل المسلمين واستجادت إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد[2].

مما يدل على اعتناء الموحدين بمجال السفن والملاحة البحرية، الانتصارات الكبيرة التي حققها الأسطول الموحدي، حيث انتصر أمير القوات البحرية الموحدية عبد الله بن ميمون على القوات والأساطيل النورمندية المقدرة بحوالي مائتي سفينة حربية، حيث انتصر الموحدون انتصارا ساحقا، كما انتصر الموحدون في كثير من المواقع البحرية[3].

وقد أنشأت الدولة الموحدية دورا لصناعة السفن ذات الطابع التجاري، حيث كانت تستخدم في التنقل بين إقليمي المغرب والأندلس، كما صنعت القوارب والسفن الصغار وغيرها بالموضع المعروف بالحبالات بقرب ملقة وادي فاس أيام الخليفة عبد المؤمن الموحدي[4]، حيث أراد الوجهة لفتح المهدية، ومن هنا فقد تنوعت السفن ما بين حربية تابعة للأسطول العسكري، وتجارية مخصصة لنقل البضائع والتجار وأحيانا تجمع بين نقل البضائع والمسافرين في آن واحد.

[1]- خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 282.

[2]- ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص: 316.

[3]- يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص ص: 59-60.

[4]- الجزنائي، المصدر السابق، ص: 37.

كانت الرحلات التجارية تخضع لعامل البحر والأحوال الجوية المؤثرة فيه فتشكل بذلك نمط من مواسم الرحلات التجارية البحرية التي كانت غالبا ما تتم في فصول الاعتدال المناخي أي من شهر مارس إلى شهر نوفمبر[1]، فقد ظلت قوافل المدن الإيطالية تتبع نظام الملاحة القديم الذي يمنع الملاحة في فصل الشتاء إذ كانت السفن تخرج في فصل الصيف ولا تعود إلا مع منتصف فصل الربيع، ثم بدأ سكان المدن الساحلية في حوض المتوسط يتحررون من هذه القيود التي فرضتها الظروف الطبيعية من خلال العمل بالتقنيات الحديثة في ميدان الملاحة مثل البوصلة، واستعمال الخرائط البحرية والتي تساعد في معرفة اتجاه السفن وتحديد مسافات السواحل وموقع الجزر[2].

وقد أعطى ابن جبير مواصفات السفن التجارية، فكان أغلبها مزودا بالأشرعة ذات الشكل المدور أو المثلث، حيث اشتهرت بصناعتها كل من جنوة ومرسيليا، وكان البحارة يحتفظون بشراع متين وقت الحاجة أثناء هبوب الرياح العاصفة، كما وصف السفن بأنها ذات أحجام كبيرة، "يقول صعدنا المركب، وهو سفينة من السفن الكبار بمنة الله على المسلمين بالماء والزاد"، فقد وصف المركب الذي أقلهم من مدينة عكا إلى صقلية بأشبه بمدينة جامعة لما يتوفر عليه من المرافق المختلفة مواد كثيرة معروضة للبيع من خبز وماء، ومن جميع الفواكه كالرمان والبطيخ والبصل والثوم[3].

ج- الطرق البرية:

كانت الطرق البرية في البلاد الأندلسية متقاربة تربط جميع أرجائها، كما وجد طريق بري يربط بين مدن الساحل الأندلسي، وقد كان مستعملا خلال القرن السادس هجري، وكانت مراكز التجارة الأساسية في العصر المرابطي هي المرية وقرطبة، وغرناطة، وأصبحت في العصر الموحدي إشبيلية ومالقة ومرسية[4].

[1]- ابن جبير، المصدر السابق، ص: 284.

[2]- رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 263.

[3]- ابن جبير، المصدر السابق، ص ص: 178-287.

[4]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ص: 101-106.

وقد كان المغرب يتصل بمراكز التجارة في إسبانيا وعبرها إلى إيطاليا وعبرها إلى أوربا من مراكز تنطلق من ثغور وادي يانة ونهر شفر وهو قصر أبي دانس وبطليوس وماردة وقلعة رباح إلى قلمرية وأشبونة وطليطلة وبرشلونة، ومن بلنسية برا مع الساحل إلى برشلونة.

لكن وعورة الطرق وحالة الحرب جعلت التجارة البحرية أمرا أيسر مع وجود الوسطاء مثل تجار المدن الإيطالية[1].

5- المنشآت التجارية:

انتعشت الحركة التجارية في العصر الموحدي وازدهرت لوجود مجموعة من التنظيمات والمنشآت الضرورية التي كان لها دور في مجال المبادلات التجارية، فإن كان للقوافل التجارية ووسائل النقل البحرية من سفن وقور بدور مهم في مجال التبادل والنقل التجاري، فإن الفنادق ولا تقل أهمية عنها في هذا الشأن.

أ- **الفنادق:**

اقتضى النشاط التجاري الكبير الذي وصلت إليه الدولة الموحدية، ووصول عدد كبير من التجار من مناطق بعيدة ببضائعهم وسلعهم المتنوعة إلى تخصيص أماكن للتزول والاستراحة، وأخرى لتخزين البضائع وجزء خاص بالدواب، ومن هنا ظهر دور الفندق في التجارة الخارجية كوسيلة مساعدة على الإقامة وكمكان لإيواء التجار خاصة الأوروبيين منهم، وقد ألحقت بالفنادق مكاتب تعتبر بمثابة الإدارة المسيرة لشؤون الفندق والقائمة على مصالح الجالية من التجار وغيرهم، وقد وصف دوماس لاتري "الفندق واعتبره مركبا يشبه المدينة لما يحتويه من مرافق متكاملة[2]، فهو يحتوي على كنيسة لأداء الشعائر الدينية وفرن لإعداد الطعام للمسافرين ومعتبرة لدفن الموتى إضافة إلى محلات لتقديم خدمات مختلفة كمحلات خياطة الملابس وصناعة الأحذية، وبيع الخمور، ودباغة الجلود والفراء[3].

[1]- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 316.

[2] - De Mas Latrie, Les relations des chrétiens avec les arabes de l'afrique septentrionale au moyen Age, paris, 1866, p 89.

[3]- محمد الشريف، المرجع السابق، ص: 75.

كما يوجد بالفندق مكتبان متخصصان في مراقبة أوضاع الفندق ومحلاته أو مراقبة السلع والبضائع، وخاصة الكيل والميزان، ومراجعة الحسابات، وتسجيلها عن طريق دائرة البيع، ومنع ممارسة الأعمال المخلة بالأخلاق أو تربية بعض الحيوانات كالخنازير[1].

وقد أدى نشاط التجارة وازدهاره في منطقة ما إلى زيادة عدد الفنادق بها، فالمرية مثلا بلغ عدد فنادقها في منتصف القرن السادس هجري حوالي 970 فندقا، فقد اكتسب شهرة كبرى في التجارة العالمية، وقد عرفت بأنها أب الشرق ومفتاح التجارة، فقد كانت تصلها السفن من المشرق والأقطار الأوروبية للتجارة، فهي ميناء لمراكب التجار من مسلم وكافر، فلم يكن في بلاد الأندلس أحصن من أهلها نقدا ولا أوسع منهم أحوالا[2]، كما يشير السقطي صاحب كتاب آداب الحسبة لأهمية المرية التجارية فكثرت بها الفنادق وهي محط للسفن ودار للتجار والمسافرين[3].

انتشرت الفنادق في الفترة الموحدية في بلاد المغرب والأندلس، وقد تحكمت السلطة الموحدية في أماكن إقامة التجار بها، وتحديد مناطق العمل التجاري مع التجار الأجانب، وذلك من خلال اتفاقيات السلم والتجارة التي كانت تعقدها مع الدول الأوروبية المختلفة مثل الاتفاقية التي عقدها الخليفة المنصور بطلب من حكومة بيشة تمديد معاهدة السلام بين البلدين والمؤرخة في أوائل شهر رمضان سنة 582هـ والتي حددت مدتها بخمس وعشرون سنة، حيث حددت المراكز التجارية ومناطق النزول والإقامة بها فتضمنت في الساحل المغربي أربعة من جملتها سبتة وهران، بجاية، وتونس، إضافة إلى مدينة المرية ببلاد الأندلس[4].

كما وجدت الفنادق بتونس والملاجئ الخاصة التي نزل بها التجار الأجانب أمثال الجنويين والبنادقة والقطلونيين[5].

---

[1] – De Mas latrie, Op-Cit, p, 90.

[2] – الإدريسي، النزهة، المصدر السابق، ص ص: 197–198.

[3] – السقطي، المصدر السابق، ص: 55.

[4] – أحمد عزاوي، رسائل موحدية، المرجع السابق، ج1، ص: 174.

[5] – الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، د.ط، دس، ج2، ص: 74.

وقد سميت الفنادق بأسماء البضائع والسلع التي تخزن فيها مثل فندق الملح وفندق الصوف وفندق القمح، كما حملت الفنادق اسم الجالية التي تقيم فيها، فبمدينة تلمسان يشير الحسن الوزان إلى وجود فندقين خاصين بتجار جنوة والبندقية في قوله، "وفيها فنادق على النمط الإفريقي، منها اثنان لمقام تجار جنوة والبندقية"[1].

وهكذا وجدت الفنادق المسيحية بالمدن التجارية المغربية الكبرى مثل بجاية، تلمسان، وهران، كما خصصت أماكن لإيواء التجار المسيحيين في المدن الصغرى وهو الأمر الذي ضمنته المعاهدات التجارية[2].

[1]– الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 20.

[2] –De Mas Latrie, Op-Cit, p 92.

المبحث الثالث: العلاقات التجارية للدولة الموحدية مع البلدان الأوروبية (المسيحية):

عرفت بلاد المغرب الإسلامي منذ منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي توجها بحريا، في تجارتها الخارجية، وبالتالي أصبحت أكثر تفتحا على تجارة البحر الأبيض المتوسط والبلدان المظلة على ضفتيه سواء الإسلامية أو النصرانية، وقد ربطتها عديد العلاقات التجارية مع التجار المسيحيين، وقد اتصفت هذه العلاقات في هذه المرحلة بغير المباشرة وغير الرسمية لذلك انعدمت المادة التوثيقية في هذا الصدد كالمراسلات بين الموحدين والممالك النصرانية في القرن الخامس هجري، وبالتالي تأخر التعامل الرسمي بين المغرب الإسلامي والبلدان النصرانية إلى القرن السادس الهجري، الثاني عشر ميلادي، الذي يعتبر الانطلاقة الفعلية للعلاقات الاقتصادية بصفة عامة بين الطرفين[1]، حيث تعززت هذه العلاقات عن طريق عقد مجموعة من المعاهدات التجارية التي تنظم التجارة النصرانية ببلاد المغرب.

ويعتبر النصارى في بعض المدن الإيطالية أول من بدأوا بالاحتكاك بالمسلمين في المدن الساحلية بالحوض الغربي للبحر المتوسط، إذ قامت بينهم علاقات تجارية لفتت نظر ابن حوقل[2] في قوله: "ما يؤخذ عما يرد من بلاد الروم والأندلس، فيعش كل سواحل البحر" وهو دليل على أن التجارة كانت قائمة بين الجهتين مبكرا.

وقد شجعت الدولة الموحدية هذه العلاقات التجارية، فقد حرص الخليفة الأول عبد المؤمن بن علي الكوسي على الحفاظ عليها، خاصة وأن مجال التبادل التجاري، أصبح ضئيلا مع بلاد المشرق بسبب التغيرات السياسية والمتمثلة في النفور بين العباسيين والموحدين بعد إعلان الخلافة الموحدية[3].

وهكذا أصبح التبادل التجاري كثيفا بموانئ المغرب الإسلامي إذ كان التجار من مختلف الأديان يلتقون بها، مما أدى إلى ظهور ديناميكية جديدة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، ولقد اختلفت حظوظ المدن الأوروبية وتفاوتت في مجال العهود والاتفاقيات

---

[1] – De Mas Latrie, Op-Cit, p 36.

[2] – ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 78.

[3] –حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية، المرجع السابق، ص: 55.

والصفقات التجارية مع الدولة الموحدية، وذلك وفقا لإطار العام للعلاقات السياسية بين الطرفين ومدى الالتزام بهذه الاتفاقيات واحترامها.

1- العلاقات التجارية مع المدن الإيطالية:

أ- مع مدينة جنوة:

تعد من أقدم المدن الإيطالية في التعامل مع الموحدين فهي من أبرز الشركاء والمتعاملين التجار، إذ نظمت العلاقات بين الطرفين بإتفاقية سنة 548هـ (1153م-1154م)، فأصبح للجنويين حق المتاجرة مع سواحل الدولة الموحدية مع امتياز خاص وهو أداء ضريبة 8% على سلعهم ما عدا في بجاية نهر 10% وانتظمت التجارة مع موانئ مهمة مثل طرابلس وتونس وبجاية وسبتة[1].

وقد حظي التجار الجنويين من خلال هذه الاتفاقيات إلى ضمان الحماية لسلعهم في كل المناطق الموحدية وقد كانت جمهورية جنوة الأسبقية منذ بداية حياتها التجارية مع السواحل المغاربية، وهذا ليس فقط بفضل موقعها الجغرافي القريب من إفريقيا، وإنما كذلك لأن جزيرة كورسيكا وسردينيا كانت بمثابة محطتان ومخازن بالنسبة لتجارتها[2].

وقد أصبح الجنويين سادة التجارة مع المغرب الإسلامي دون منازع، فقد كانت اهتماماتهم التجارية تغلب على طموحاتهم السياسية، عكس الأرغونيين والقشتاليين الذين ربطوا العلاقات التجارية بالعمل العسكري في غالب الأحيان[3].

وقد عرفت العلاقات الجنوية مع المغرب الإسلامي في عهد الموحدين ازدهارا كبيرا من خلال المعاهدات التي تم إبرامها مع الخليفة عبد المؤمن الموحدي سنة 555هـ1161م مع سفيرها Otto bono de Alberici لمدة 15 سنة، كما وفد وفد جنوي سنة 564هـ 1169م

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحدية، المرجع السابق، ص: 92.

[2]- محمد الشريف، المرجع السابق، ص: 82.

[3]- المرجع نفسه، ص: 83.

إلى سبتة وسنة 565هـ 1170م على التوالي لتأكيد الاتفاقيات المبرمجة سابقا بين المغرب وجنوة[1].

وبفضل هذه الاتفاقيات والامتيازات الممنوحة لتجار جنوة، سرعان ما عرفت التجارة الجونوية توسعا كبيرا في مجمل المغرب، وبصفة خاصة بسبتة وهو ما ذكرته الأرقام المتعلقة بكثافة العمليات التجارية خلال الفترة الموحدية[2].

السنوات	سبتة	بجاية	سلا	تونس	قابس	طرابلس
1164م-1166م	1683 ليرة	1166 ليرة	390 ليرة	353 ليرة	88 ليرة	70 ليرة

فقد قامت مدينة جنوة بتأسيس 30 مؤسسة لتنظيم التجارة مع بجاية ، ووصلت إلى 15 مؤسسة مع تونس و03 مؤسسات مع طرابلس، وهذا ما يؤكد كذلك أهمية المبادلات التجارية الجنوية المغربية[3].

وقد استمرت العلاقات التجارية لجنوة مع الدولة الموحدية إلى آخر مراحلها وهو ما ذكرته الإحصائيات التي تناقلتها لنا السجلات والوثائق الجنوية، وتمثلت إفريقيا الشمالية ربع العقود التجارية 26%، الأمر الذي يؤكد أن تجارة إفريقيا الشمالية بقيت أساسية بالنسبة لجمهورية جنوة[4].

[1]- رشيد ياقة، المرجع السابق، ص: 235.

[2]- محمد الشريف، المرجع السابق، ص: 85.

[3]- أحمد عزاوي، المرجع السابق، ص: 92.

[4]- محمد الشريف، المرجع السابق، ص: 87.

ب- مع مدينة بيزا:

بدأت العلاقات التجارية للدولة الموحدية مع حكومة بيزة (بيشة) في فترة مبكرة أي منذ خلافة عبد المؤمن بن علي، ومما يدل على ذلك الرسالتين الموجهتين من حكومة بيزة إلى أمير المؤمنين الموحدي أبي يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين جاء في نصها: "ونحن واقفون على التزام رسوم العهد المكرم وحدوده، والبحري على مواسمه المتعارفة في إطلاقه وتقييده"[1]، وهنا إشارة واضحة للسلام والتجارة بين بيشة والموحدين، وهذا ما يجعل من المحتمل أن يكون عبد المؤمن قد عقد اتفاقيات بين بيزة وإفريقية، وذلك في إطار تنظيم العلاقات التجارية وديمومتها على النمط الذي كانت عليه قبل الموحدين[2].

ففي 06 ماي 1166م توجه أحد قناصلة جمهورية بيزا **Cocco Grifii** إلى المغرب الأقصى للتفاوض من أجل عقد معاهدة سلام مع السلطان الموحدي أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن، وخلال هذه المفاوضات أعاد يوسف للبيزيين الإعفاءات والممتلكات التي كانت لهم بإفريقية، وحق تملك فندق بزويلة[3]، وعقد معهم معاهدة سلام طيلة عهده وبعث مع التغيير العديد من الأسرى الذين ردهم إلى جمهوريتهم[4].

الأمر الذي شجعهم على توسيع نشاطهم في سواحل إفريقية، خاصة في كل من قابس، وصفاقس، وكذا ميناء طرابلس[5].

لكن يبدو أن هناك عراقيل قد اعترضت سبيل العلاقات بين البيزيين والدولة الموحدية منها الاعتداءات وأعمال القرصنة[6]، المتكررة التي كان يمارسها تجار بيزة على الموحدين، والتي كانت تعكر صفو العلاقات التجارية والدبلوماسية بين الطرفين.

---

[1]- أحمد عزاوي، المرجع السابق، الرسالة، ص: 165.

[2]- أحمد عزاوي، العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصر الوسيط من خلال نصوص عربية للمراسلات واتفاقيات السلم والتجارة، مطبعة الرباط، 2011م، ط1، ج11، ص: 242.

[3] - زويلة: مدينة متصلة بالمهدية وكانت حسنة المباني والشوارع وأهلها مياسير نبلاء وأسوارها عالية حصينة مبنية بالحجر وفيها فنادق وحمامات جمة، ينظر: الحميري الروض المعطار، المصدر السابق ص 296.

[4]- خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 242.

[5] - De Mas Latrie, Op-Cit, p 49.

[6] - Amari, M, I Diplomi Arabi dell Archivio Fiorentino, T1, M1, 1863, p 8-9.

الأمر الذي دفع بيزا إلى إبرام معاهدة سلم جديدة مع السلطة الموحدية، وفي 15 نوفمبر 1186م أصدر أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي عقدا عبارة عن معاهدة رسمية حددت من صلاحيها بـ 26 سنة، التزمت فيها بيزا بمنع القرصنة عن أملاك الدولة الموحدية وحماية مواطنيها من القراصنة، وقد أكدت هذه الاتفاقية على حرية الأشخاص والممتلكات، وحرية التجارة بأملاك الدولة الموحدية مع اشتراط دفع 10% على السلع التي تباع للتجار المسلمين[1].

بقيت بيزة محافظة على العلاقات والنشاطات التجارية مع الدولة الموحدية للحصول على الأرباح، وتحقيق المصالح.

كما سعت الدولة الموحدية إلى مواصلة علاقتها مع بيزة التي غدت واحدة من المدن الإيطالية الكبرى بفضل صناعتها الجلدية المتطورة جدا، وتطور القطاع الصوفي بها.

وقد منحت الاتفاقيات العديدة من الامتيازات للبيزيين، وكانت دليلا على أنهم أصبحوا يتمتعون بأكثر خطوة واعتبارا لدى السلطات المغربية، فكان مرخصا لهم الإقامة خارج تونس في كل من بجاية، عنابة، المهدية، قابس، طرابلس، كما أنهم يتمتعون في كل مدينة يمتلكون فيها فندق، ويحق بناء كنيسة ومقبرة بها، ويحق لقناصلهم المطالبة بمقابلة الأمير في العاصمة أو الولاة في المدن الأخرى مرة في الشهر.

مع البندقية:

تعتبر البندقية شريكا اقتصاديا أساسيا وطرف مهم في إطار العلاقات التجارية مع الدولة الموحدية خاصة ويمكن تصنيفها في المرتبة الثالثة بعد كل من جنوة وبيزة، حيث تعود العلاقات الرسمية في المجال التجاري للبندقية مع الموحدين إلى فترة الدوق زياني Ziani Sibastiano تمتد ما بين سنتي 1172-1178م، حيث وقع هذا الأخير خلال المرحلة الأولى من حكمه معاهدة صلح وتجارة، مع الموحدين، فقد طمحت جمهورية البندقية دائما إلى مزاحمة منافستها جنوة بكل الفضاءات التجارية المتوسطية، وبهذا الصدد يرى باحث

[1]- خديجة بورملة،المرجع، ص: 242.

مختص أن الحوليات البندقية ودراسة شوب Schaube والقانون البحري لكمونة البندقية أنها تؤكد أهمية الحضور التجاري للبنادقة بكل بلاد المغرب من طرابلس إلى سبتة، فقد نشط التجار البنادقة في تصدير الرقيق والخشب لمدن الشواطئ الإسلامية، واشتروا رقيقا من روما ذاتها عرفوا بالعبيد البيض، ليجنوا ثمار تلك التجارة الرابحة، وكانت هذه التجارة أصل قدومهم تجارا في ثغور إفريقيا الشمالية.

وقد عرفت في الحوض الغربي للمتوسط، نفس التطور الذي عرفته تجارة جنوة وبيزة، إذ بلغت أوجها في النصف الثاني من القرن 12م، وهي الفترة التي بدأت فيها العلاقات التجارية الإيطالية في التطور والازدهار ببلاد المغرب.

ولقد كانت الرحلات التجارية لبنادقة نحو بلاد المغرب تتم وفق تحديد دقيق ومضبوط للأماكن التي تنطلق منها حسب القوانين البحرية للبندقية التي سنتها في ماي سنة 1225م، إذ حددت المراكز التجارية الموحدية المتعامل معها في تونس وبجاية وسبتة، حيث تكون الانطلاقة من ميناء البندقية في 29 يونيو، ومن الموانئ الموجودة ما بين البندقية ومنها إلى ميناء آخر بعيد في فاتح غشت، وبذلك يسهل على السفن أن تتجمع في ميناء محدد، كما يمكن تفادي الخسارة الناتجة عن تأخر وصول إحداها إلى البندقية[1].

كما سن القانون البحري الصادر في الفاتح يونيو 1229م بنودا خاصة بالسفن التي تتجه إلى بلاد المغرب الممتدة من برقة إلى حدود سبسة تتعلق بالشحن بكميات الماء والخمر، حيث يمكن لكل بندقي أن يتزود بها خلال الرحلة التجارية إلى بلاد المغرب كما ذكرت البنود نفسها الأصواف كمادة أساسية جلبها البنادقة من كل بلاد المغرب[2].

2- العلاقات التجارية مع الممالك الإسبانية:

لقد غلب على العلاقات الموحدية المسيحية طابع التوتر والمواجهات المسلحة، حيث كان الإسبان يستغلون فترات ضعف الحكم الأندلسي لاكتساح الأراضي لصالحهم في إطار

[1]- غربي بغداد، العلاقات التجارية للدولة الموحدية، مذكرة تخرج دكتوراه، كلية العلوم الانسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران، 2014 – 2015، ص193.

[2]- نفسه، ص 134.

سموه بحركة الاسترداد، لذلك ظهرت قوة سياسة جديدة نظر إليها الإسبان كعدو معيق لهذه الحركة[1]، وبسبب ذلك لم تكن هناك علاقة واضحة المعالم أو اتفاقيات تجارية قانونية ورسمية كما هو الحال مع المدن الإيطالية بين الموحدين والنصارى واتفاقات هدنة إلا في مدة محددة فرضتها مصالح الطرفين الإسباني والموحدي عادة[2].

فبالنسبة للقوى الإسبانية المناوئة للوجود الموحدي للأندلس تمثلث في مملكتي قشتالة تحت حكم ألفونسو السابع وأراغونا تحت حكم رامون برانجير الرابع حيث اجتمع الملكين في مدينة تطيلة في شهر جمادى الثاني 545هـ/1151م وعقدو اتفاقية بينهما بإسم إتفاقية تطيلة اتفقا فيها على تقسيم الأندلس بينهما وتحديد مناطق النفوذ حصل الملك أراغون بموجب هذه المعاهدة على حق غزو شرق الأندلس ثم تعاهد كل من الملكين باحترام حقوق الآخر والتعاون معا على قتال المسلمين[3].

وبعد وفاة القيصر ألفونسو ريموندس سنة 1157م انقسمت مملكة قشتالة بين ولديه واختص ولده سانشو الثالث (____) قشتالة والأراضي التابعة لها وعاصمتها طليطلة مع حق الجزية على مملكتي نفارا وأراغون واختص ولده الأصغر فرناندو بمملكة ليون وجليقية وأشتوريوس مع حق السيادة على مملكة البرتغال وبهذا التقسيم الجديد لمملكة قشتالة الكبرى أصبحت الممالك الإسبانية النصرانية خمس وهي مملكة أراغون وقطلونيا المتحدة ونفارا وقشتالة وليون والبرتغال[4].

وقد تكررت الهجمات الإسبانية على الأراضي الموحدية كما أن الموحدين تولو مرات عديدة استرجاع الأراضي الإسلامية أو التوسع على حساب الوجود النصراني بالأراضي الأندلسية فكانت الحرب سجلا بين الطرفين حيث هاجمت البرتغال وسط الأندلس، وانتقل الخليفة الثاني يوسف بن عبد المؤمن بقواته إلى الأندلس، أواخر ستينات القرن السادس، والقيام بردود فعل ناجحة ضد البرتغاليين، دفعتهم إلى عقد هدنة مع الموحدين، وبالتالي

[1]– خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 572.

[2]– أحمد عزاوي، العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي، المرجع السابق، ص: 29.

[3]– هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص: 237.

[4]– محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، المرجع السابق، ص: 515.

هناك ثلاثة ملوك تذكرهم رسالة الخليفة حول موضوع الهدنة وهم ملك ليون وملك قشتالة وملك البرتغال[1]، وهكذا عقد الموحدون الهدنة من موقع القوة وبشروط خاصة إلى مدد مختلفة قدر ما ينجز فيها ما يليه من الثغور ولم يبق عن روم الجزيرة الاستردمة بإزاء بلنسي لم تشترك في عقد الهدنة مع الموحدين وهي مملكة أراغون[2]، التي تقع في أقصى الشمال الشرقي الذي يصعب اقتحام الموحدين لأراضيها وسهولة حصولها على إمدادات من وراء جبال البرانس[3].

إن العلاقات التجارية والمبادلات الرسمية بين الطرفين الموحدي والنصراني لا أثر لها ضمن المراسلات الرسمية ويعود ذلك إلى الطابع العدائي بين الطرفين، لقد كانت هناك تحذيرات مشددة بين الطرفين إلى رعاياهما تحظر التعامل التجاري مع الطرف الآخر تحت طائلة القانون فقد أصدرت السلطات الموحدية قرارات تمنع بيع المواد الغذائية والخيل والعتاد الحربي النصراني وذلك من خلال الرسالة التي وجهها الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى الطلبة بالنسبة لمقاطعة التعامل مع أهل مالقة بعد رفض انضمامهم للموحدين هذا نصها "وأما ما ذكرتموه أكرمكم الله من أمر أولائك التجار الذين يحملون المرافق إلى مالقة وأمثالها فلتنظروا نظرا أكيدا في قطعهم وردعهم ولا سبيل لأحد .. أن يمد أحد من تلك الأصناف بمادة"[4].

أما بالنسبة للجانب الآخر فقد تدخلت البابوية وحذرت ملوك اسبانيا من الاسلام والمسلمين وذكرت بخطرهما بل مارست أشكالا من الضغوط على الممالك الإسبانية وخاصة مملكة قشتالة من أجل رفض كل ما من شأنه أن يعزز العلاقات بين الجانبين الإسباني والموحدي، كما حرم البابا التعامل تجاريا مع الموحدين خاصة والمسلمين عامة فيما من شأنه أن يزيد المسلمين قوة بالأسلحة والمعادن والمراكب ومواد صناعة السفن كالخشب

[1]– أحمد عزاوي، رسائل موحدية، المرجع السابق، ج1، ص: 122.

[2]– المرجع نفسه، ص: 123.

[3]– أحمد عزاوي، العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي، المرجع السابق، ص: ص: 23.

[4]– ليفي بروفنسال مجموع الرسائل موحدية من إنشاء الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم المغربية، رباط الفتح، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1991، د.ط، ج10، ص: 13.

والحديد والمواد الغذائية وهذا ما نجده في نص من نصوص الوثائق التابعة لبلاط أراغون يغرم التجار بقيمة 500 صولدي برشلوني بسبب بيعهم لبعض السفن للمسلمين[1].

وقد وجه الاسبان بتحريض من الكنيسة مجالا خصبا في الأندلس لتحقيق أغراضهم وأطماعهم هناك وهذا كله بسبب تصاعد القوى البحرية لدول جنوب إيطاليا والممالك الإسبانية، وتصاعد قوة الإنتقام للبابا والكنيسة، ففي عام 1087م عظمت قوة بيزا وجنوة البحرية حتى أنها قامت وقتها بأكبر هجوم بحري لهما وهذا الهجوم عبارة عن حملة من 400 سفينة تضم فرقا من أهل مالقة وقوات كبيرة أمدهما بها البابا، وكان غرض الحملة مهاجمة المهدية على ساحل تونس[2]، كما شن الإسبان النصارى هجوما شرسا بقيادة جراندة وأهل شنترين على تافلة الموحدية متوجهة من إشبيلية نحو مدينة بطليوس فتحاربوا مدة طويلة من النهار ثم انهزم المسلمون وقتلوا واسروا وانتهت المسيرة وذهبت لكليتها وكان ذلك في يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان سنة خمس وستين المؤرخة (565هـ)[3].

كما قامت أساطيل جنوة وبيزة بأعمال قرصنة في البحر المتوسط وذلك باشتراكهم في الإستيلاء على المرية وطراطوشة والجزائر الشرقية، فأعطى ملك أراغونة أساطيل جنوة وبيزة ثلث مدينة طراطوشة وأعفاهم من جميع الرسوم مقابل عونهم له[4].

غير أن هذه العداوة المتجذرة في الأعماق والمحاطة بسياج من التشريعات القاسية، وجدت من عسيرها بهدوء، وقد وقع تبادل تجاري على مستوى فردي وغير رسمي على الأقل، وسرعان ما أخذ تجار قطالونية دورا متطورا في البحر المتوسط إلى حد منافسة المدن الإيطالية: بيزة، جنوة، البندقية، إذ لم يمتنع تجارها من التعامل تجاريا مع المغاربة الذين استحوذوا على قدر كبير من التجارة العالمية خلال القرن 12 ميلادي، ومن المعروف أن قطالونية ورثت التجارة الاسبانية في البحر المتوسط وارتفع بذلك تعاملها التجاري مع بلاد

[1]– بغداد غربي، المرجع السابق، ص: 199.

[2]– لويس أرشيبالد، المرجع السابق، ص: 380.

[3]– ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ص: 311–312.

[4]– هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص: 395.

المغرب[1]، وقد اقتنع الأرغونيين بأن العلاقات السلمية التجارية مع المسلمين هي أفضل بكثير من العلاقات الحربية، فخاصة التجارة مع بلاد المغرب، ولذلك قامت بعض الدول الأوروبية بعقد المعاهدات مع المسلمين، من أجل القضاء على القرصنة، وحماية التجارة البحرية، مثل عهد معاهدة بيزا سنة 582هـ/1186م، فتعهدت بيزا بموجبها بعقاب البيزيين الذين يقومون بالقرصنة ثم عقدت جنوة بمعاهدة مماثلة مع المسلمين سنة 634هـ/ 1236م[2].

وتم نفذ المسلمون في البلاد المغرب نصوص المعاهدات للقضاء على القرصنة، فوفروا الضمانات وفرضوا التعويضات على الخسائر التي تلحق برعايا الطرفين، كما تعهدت جميع الدول التي أبرمت تلك المعاملات بالعمل المشترك من أجل استئصال القرصنة[3].

وقد كفلت المعاهدات الرجال التجارة حرية التنقل من بلد إلى آخر في طمأنينة وسلام، لكن رغم ذلك فقد استمر النصارى يزاولون أعمال القرصنة يقول دوماس لاتري: «في نفس الوقت الذي كان التجار المسيحيون محفوظين بالرعاية والعناية تعاملهم سلطات المغرب وسلطانه بحسن فيه استداموا نهب التجار المسلمين في البحار بالرغم من المعاهدات والجهود التي فاقت الأمراء المسلمون يبذلونها[4].

وقد ألزم الموحدون أنفسهم بحماية التجارية، ونشر الطمأنينة والسلام في البحار رعاية لمصالح تجارتهم الخارجية، حيث كان أساس سياسة الخليفة عبد المؤمن الخارجية، هي معاقبة كل من تجرأ على الملاحة المسيحية بين المسلمين ولم يكن يسمح لغير أساطيل الدولة بمطاردة العدو والقراصنة[5].

[1]– خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 258.

[2]– هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص: 395.

[3]– المرجع نفسه، ص: 396.

[4]– المرجع نفسه، ص: 396.

[5]– نفسه، ص: 397.

المبحث الرابع: المبادلات التجارية بين الموحدين والممالك النصرانية:

عرفت الدولة الموحدية بتنوع منتجاتها الزراعية والصناعية والتي كانت تزيد عن الحاجة في غالب الأحيان، وبالتالي توجه إلى التصدير، كما أن الدولة كانت في حاجة إلى اقتناء بعض المواد الضرورية التي حصلت عليها عن طريق الاستيراد من خلال المبادلات التجارية بينها وبين الدول الأوربية، في مقدمتها الحكومات الايطالية صاحبة الحظ الأوفر في المبادلات العامة.

لم ترد معطيات كثيرة لمعرفة أنواع السلع التي تم تبادلها بدقة بين الطرفين، وهذا يسبب العوائق والقيود التي فرضتها السلطات الرسمية السياسية أو الدينية على كثير من السلع الأساسية كالأخشاب والحديد والرصاص، والمواد الغذائية، والتي أصبحت في قائمة المحظورات التي حرم بيعها للطرفين بصفته عدوًا أو كافرًا، ولهذا كان التجار الأوربيون قلما ينصحون من حقيقة أو كمية السلع التجارية التي يجلبونها إلى البلاد الإسلامية ويستخدمون الحيلة للتهرب من العقوبات المفروضة على المتاجرة بهذه السلع المحرمة[1].

أما المصادر الإسلامية وخاصة كتب الرحلات والجغرافيا فقد عددت أنواع السلع ومناطق إنتاجها بدقة، كما ذكرت جهات تصديرها بصفة عامة[2].

1- الصادرات:

أ. الذهب:

شكل الذهب أحد أهم السلع المجلوبة من السودان والذي كان متوافرا بكثرة بغاو، أودغست، وغانة، وقد جازف التجار المغاربة وسط الصحراء المتزامنة الأطراف يبحثون عن مواطن الذهب من أجل اقتناء أكبر كمية منه، والذي كان نادرًا في بلاد المغرب وأوربا، وبيعت بأسواق الشمال، وكان ذهب السودان يغذي ما يقدر بنصف من حاجة عالم البحر المتوسط[3].

[1]- بغداد غربي، المرجع السابق، ص: 206.

[2]- الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص: 329.

[3]- خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 140.

وقد كثر تدفقه على أقطار المغرب الثلاث بعد الفتوحات الإسلامية وسيطرة المسلمين على طرق القوافل التجارية الرابطة بين الشمال والجنوب خاصة في عهد المرابطين والموحدين من بعدهم، حتى أصبحت بلاد المغرب تنعت ببلاد الذهب لتعاملهم به بكثرة، يقول البكري، « ومن الغريب عندهم أن الذهب جزاب عدد بلا وزن والكراث يتابعونه وزنا لا عددًا»[1].

وقد عرفت الدول الأوربية تدفق الذهب إليها عن طريق الأندلس في عهد المرابطين والموحدين بعدهم حيث كان ينقل إلى الأندلس على شكل سباتك عبر موانئ المغرب الشمالية، وكان يتخذ دور غرب في عواصم الأقاليم لسك النقود باسم أمير المسلمين، بدل على ذلك ما ذكرته كتب السكة من تعدد دور الغرب في الأندلس، فقد اتخذ الأمراء دور غرب في اشبيلية وبلنسية والجزيرة وغرناطة، وقرطبة ومالقة، ومرسية، وألمرية، كما اتخذوا دورًا للغرب في أغمات وتلمسان وقامت مراكش وسبتة وسلا[2].

وعبر الأندلس انتقل الذهب إلى بلدان أوربا الغربية وانتشر في اسبانيا النصرانية، وقد عمل المسلمون على سبك كميات كبيرة من الذهب في شكل عملات نقدية وطرحوها للتداول في الأسواق، فظهرت قطع نقدية بأوزان معلومة من الذهب الخالص نالت شهرة عالمية، وصار الدينار الموحدي عملة مطلوبة في جميع أنحاء العالم، لتفاوته في الوزن وقيمته العالية[3].

فقد بحث الأوربيون عنه وطلبوه لدى بلدان شمال إفريقيا خاصة بعد أن اكتشفوا أسواق المشرق المزدهرة والتي ألزمتهم بدفع مشترياتهم بالعملة الذهبية.

ومن المدن الأوربية التي ساهمت بنصيب وافر في تجارة الذهب في بلاد المغرب والأندلس جنوة التي وسعت في تجارته، حيث مثلت موزع أساسي له إلى كل أقطار أوربا، إذ يذكر بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن تجار جنويين، ربيازا روا ومدينة سجلماسة الواقعة

[1]– البكري، المصدر السابق، ص: 151.

[2]– حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص: 352.

[3]– رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 284.

عند حدود الصحراء خلال القرن الثاني عشر ميلاد، سالكين في ذلك طريق ساحل المحيط الرابطة بينها وبين سبتة، وذلك سعينا للوصول إلى متابع إنتاجه واحتكار تجارته[1].

ب. الجلود والأصواف:

توفرت بلاد المغرب والأندلس على ثروة حيوانية كبيرة، جعلت من إنتاج الصوف والجلود أهم صادرات لها إلى البلدان المتوسطة وخاصة الأوربية في مقدمتها المدن الإيطالية التي انتقلت بين الموانئ بلاد المغرب لاقتناء الصوف والجلود على شكل مواد خام أو مصنعة، فقد اشتهرت كل من تلمسان وقابس ولمطة[2]، بإنتاج الأصواف والجلود أو تصنيعها.

ومن أسباب كثرة الطلب على الصوف المغربي من قبل المدن الأوربية خاصة التي ارتبطت بعلاقات اقتصادية مع الموحدين مثل الجنوة عدم امتلاكها الأراضي الكافية لتربية الماشية والحيوانات، التي توفر لها هذه المادة الأولية، ولتطور صناعة النسيج في أوربا خاصة بإيطاليا ودول شبه الجزيرة الإيبيرية، وجنوب فرنسا[3].

وتذكر الكثير من المصادر وخاصة الوثائق الأوربية الجنوية عملية استيراد هذه المواد من المغرب خاصة طرابلس وتونس وبجاية وتلمسان ليتم توزيعها على الأقطار الأوربية، حيث كانت كل من بيزا وجنوة أهم مصدر لهذه المواد إلى البلدان الأوربية[4].

وقد استوردت جنوة من بلاد المغرب كميات ضخمة من الأصواف والجلود، ويتوفر الأرشيف الجنوي على عدد كبير من الوثائق التي تعين تواصل عملية توريد جنوة لهذه المواد من أقطار المغرب منذ عهد الموحدين وبين الجدول إن حجم مستوردات جنوة من مادة

[1]– رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 285.

[2]– ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، د.س، ط4، ج1، ص: 403.

[3]– خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 142.

[4]– غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 208.

الصوف المغربية بلغ حوالي 54% عبر ميناء بجاية 13.7% عبر ميناء تونس، و12.7% عبر ميناء بونة[1].

كما تشير الاتفاقيات بين جمهورية جنوة وبلاد المغرب إلى الإلحاح الطرف الجنوي على السلطات الموحدية من أجل تخفيض الضرائب المفروضة على الأصوات والجلود حيث كانت جنوة تؤدي ضريبة قدرها 3 دراهم قضية على القنطار الواحد للصوف وجلود الضأن، بينما كانت تطالب بمبلغ قدره 07 دارهم كضريبة على جلود البقر، أما جلد التيس فقد كانت تؤدي عليه ضريبة، قدرها 21 درهما[2] مما يدل على أهمية هذه المادة المصدرة من بلاد المغرب وأنها من أهم السلع التي كان الايطاليون يسوقونها إلى بلدان أوربا.

استورد الجنويون الجلود المغربية، وأنصّب اهتمامهم على جميع أنواع الجلود، سواء كانت خامًا أو مدبوغة أو مصنعة، حيث بيعت رزمة من 95 جلد بقر بـ 63 دينار ذهبي أو رزمة أخرى من 50 جلدًا بـ 30 دينار أي بمعدل $\frac{2}{3}$ و $\frac{3}{4}$ السعر الجلد الواحد، ومن أشهر أنواع الجلود Guadameci واسمه بالتأكيد مشتق من مدينة غدامس المغربية إلى الجانب القرطبي Coadeisos والشطبي SHatibi وهما مدينتان بالأندلس[3].

وهكذا وجه الأوربيون ببلاد المغرب والأندلس كل ما يحتاجونه لصناعتهم النسيجية التي بدأت تتطور منذ منتصف العصر الوسيط، وذلك بفضل ما وفرته لها بلاد الموحدين من مواد أولية مثل الصوف والجلود.

ج. العبيد:

ارتبطت تجارة الذهب بتجارة العبيد باعتبارات أن مصدرهما واحد وهو بلاد السودان إذ شكلتا بضاعتين رئيسيتين في قائمة السلع التي يجلبها التجار المغاربة من بلاد السودان، وكان العبيد مثل الذهب من السلع التي يأتي التجار الأوربيون لاقتنائها من بلاد المغرب.

[1]– رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 288.

[2]– غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 209.

[3]– رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 288.

اعتمدت الحياة الاقتصادية في الفترة الموحدية على اليد العاملة المستأجرة الأمر الذي دفعها إلى المتاجرة بالرقيق، وجعلها تجارة مزدهرة حيث خصصت لها أسواق خاصة سميت بأسواق النخاسة كسوق البركة بتونس، حيث أصبحت تجارة الرقيق موردا أغدق ثروات طائلة على أربابها إلى درجة أن وصل ثمن الأمة السودانية بالمغرب ألف دينارا وأكثر[1].

وقد شاركت معظم المدن التجارية الأوربية بنشاط في تجارة الرقيق، وكانت جنوة في مقدمتها والتي كانت تشجع هذه التجارة المحرمة من طرف البابوية، فقد أصبح لجنوة سلطة كاملة للاتجار في الرقيق من الجنسين، وكانت قيمة العبد تتوقف على عمره وصحته، وقد أستخدم الرقيق في الأعمال الزراعية وتشكيل فرق عسكرية في السفن الشراعية[2]، وقد حصلت جنوة على الرقيق الأبيض من مستعمراتها بالبحر الأسود، أما الصنف الأسود رقيق إفريقيا، فكانوا يشترونهم من بلاد المغرب والأندلس خاصة إفريقية الموحدية ثم يبعونهم في أوروبا، وخاصة في صقلية ولم يتوقف نشاط الجنويين في المتاجرة بالعبيد الأفارقة إلا بعد منتصف القرن الخامس عشر ميلادي، عندما استطاع البرتغاليون إلى سواحل المحيط الأطلسي في موريطانيا والسينغال[3].

د- مواد الصباغة والدباغة:

صدرت بلاد المغرب إلى الأوربيون مواد نباتية تستعمل في الصباغة منها النيلة، وهو نبات عشبي للصباغة ينمو بكثرة في منطقة وهران ويقبل الإيطاليون على شرائه لاستعماله في تلوين وصبغ الأقمشة[4].

وقد اشتهرت منطقة سجلماسة بالنيلة حيث توفرت بكميات هائلة، وهي من أجود ما ينتج منها في البلاد، إذ يطلق عليها اسم النيلة الدرعية، حيث يسوق منها إلى إفريقية والأندلس وبلاد الروم[5].

---

[1]- غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 211.

[2]- عزيز سوريان عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، تر: فيليب صابر سيف، دار العالم العربي، القاهرة، 1972، ط1، ص ص: 171-172.

[3]- رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 289.

[4]- خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 145.

[5]- غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 214.

وقد تحصلت المدن الإيطالية وفي مقدمتها جنوة بسهولة على المواد الصباغة والتي شملت عدة أصناف منها النيلة، والشب، والقرمزي، والزعفران وغيرها، وقد أقامت جنوة شركات احتكارية الاستغلال مناجم الشب لزيادة الإنتاج وتصديره إلى أوربا[1] والتي غنوا من ورائها كثيرا.

هـ- المواد الغذائية:

تنوعت المنتجات الغذائية في البلاد المغرب والأندلس في الفترة الموحدية، حيث كان الفائض من الإنتاج يسوق إلى المختلف الجهات، ومن بين المواد الغذائية الأساسية التي لعبت دورًا في مجال المبادلات التجارية الموحدية والنصرانية وعلى رأسها المدن الإيطالية، مادة الزيت والملح والقمح، غير أن هذه المواد لم تكن مطلوبة على الدوام، ولكن كانت تصدر من المغرب والأندلس إلى جنوة في حالات الأزمات الاقتصادية[2]، وعلى هذا الحال كان الجنويون غالبا ما يستوردون القمح والزيت من بلاد المغرب، كما صدر بالمقابل هاتين السلعتين إلى إفريقية على فترات متقطعة، إذ كان التونسيون يترقبون وصوله بفارغ الصبر، وقام القنصل بتخزينه بهدف المضاربة على سعره[3].

وقد اشتهرت بلاد المغرب بإنتاج الزيت، ففي الغرب نجد مدينة مكناسة الزيتون عرفت كثرة الثمار، وأكثرها الزيتون فسميت به، وهي مدينة جليلة، وجلب لها ماء نهرها، وأمر بغرسها زيتونا وكروما[4] فزيتها أكثر زيت في جميع المغرب، يقول البكري «ومن زيتها يمتاز أهل مصر وأهل المغرب وصقيلية والروم[5]، كما اشتهرت مدينة اشبيلية بإنتاجه، وجل تجارتهم الزيت يتجهزون به من المشرق والمغرب برًا وبحرًا[6]، يجتمع هذا الزيت من الشرق، الشرق، وهو مسافة أربعين ميلا كلها في ظل شجر الزيتون والتين.

---

[1]- رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 291.

[2]- غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 291.

[3]- رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 292.

[4]- مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص: 187.

[5]- ابي عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبعة حجرية، الجزائر، 1858، د.ط، ص: 20.

[6]- الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص: 59.

حيث عمل الجنويين على تصديره إلى إيطاليا، خاصة من مدينة جربة، إذ يعتبر زيتها من أجود الزيوت عندهم، نظرا لاستعماله في تصدير السمك الذي يصدرونه إلى المشرق وأوربا، كما صدر زيت صفاقس إلى إيطاليا وصقلية وباقي بلاد الروم[1].

إضافة على مادة الملح التي أظهرت المصادر أن تجار المدن الايطالية قد بحثوا عن الملح الإفريقي وتاجروا به، فقد كانوا يشترونه بكميات كبيرة وبأسعار مرتفعة وذلك لجودته، فقد ذكر البكري أن الملح المستخرج من ملاحة لمطة لا يفوته ملح في الجودة ومنها يحمل إلى سائر البلاد[2].

وقد اشتهر البنادقة بتصدير مادة الملح وذلك بعد شرائها من طرابلس وتونس بامتياز خاص بهم دون غيرهم وذلك بموجب اتفاقيات ومعاهدات بين الطرفين، حيث كانت هذه المادة تجلب من قصر صالح بالغرب من طرابلس ومن جزيرة جربة ويصدر إلى جنوة والمدن الأوربية الأخرى[3].

ومن الصادرات بلاد المغرب الإسلامي إلى الدول الأوربية القمح الذي كان على رأس المواد الكثيرة الاستهلاك لدى سكان شمال إفريقيا، وقد كان نقصه أو ندرته في الأسواق المحلية يتسبب في حدوث مجاعات واضطرابات اجتماعية، لذلك حرص حكام المغرب على تصديره إلى بلدان أوربا المسيحية في الحالات القصوى فقط وبشروط جد صعبة، بحيث أظهرت معاهدة مع جنوة أن الكمية المسموح بها لتوريدها لا تتعدى حمولة خمس سفن كبيرة، بما يعادلها 1500 قفير[4]، ومن المواد الغذائية التي تم تصديرها إلى بلاد أوربا على رأسها جنوة، مادة السكر والعسل والتمور، وبعض الفواكه الجافة، حيث تم تصدير الملح من طرابلس إلى بيزة والبندقية، والعسل والشمع من تونس وبونة وقسنطينة وبجاية إلى جنوة وبيزة

[1]– البكري، المصدر السابق، ص: 20.

[2]– المصدر نفسه، ص: 84.

[3]– غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 213.

[4]– رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 294.

والبندقية، بالإضافة إلى الأسماك المجففة وأسماك التونة التي احتكر الجنويين تجارتها بسوسة[1].

والمرجان: تتوفر بلاد المغرب بكثرة على المرجان، خاصة المناطق البحرية التابعة لكل من القالة وتنس، وبونة، والقالة المعروفة بمرسى الخرز[2]، يقول الحميري وفيها يخرج المرجان ومنها يحمل إلى جميع بلاد الدنيا، وهناك قوم لهم مراكب وزوارق ليس لهم حرفة إلا إخراج المرجان عن قعر البحر، وهو نبات شجر له أغصان، ويقال أنه في قعر البحر لين رطب، فإذا مسه الهواء اشتد، ويخرج منه في ذلك البحر مئون من قناطير في كل سنة، وهذا نفس مرجان في الدنيا ويكون في الرقاق بساحل بليونيش من قرى، وهو مثله في الطين أو أجل، ويكون في بحر الأندلس وفي بعض جزائر البحر الأخضر، وقد بدأ استغلاله منذ القرن 4هـ/ 10م[3] وهو من نوع الجيد، ويقبل الأوربيون على النوع الأحمر أكثر من غيره، إضافة إلى الأبيض والأسود، وتستقبل البندقية وجنوة وبرشلونة أكبر كمية من المرجان الأحمر الذي يصدر إلى أوربا[4].

ومنذ البداية أظهر رجال أعمال جنوة اهتماما خاصا بالبحث عن سلعة المرجان والمتاجرة فيها، وتمكنوا من التوسع في هذه التجارة واحتكارها على عهد الموحدين حيث كانوا يقومون بتصديرها إلى أوربا والمشرق.

ثم واجه تجار جنوة مزاحمة شرسة من طرف الإسبان في مدينة سبتة، مما اضطرهم الحال إلى تركيز أعمالهم بصفة خاصة في ميناء القالة، ووضعوا أيديهم على مهنة صيد المرجان وتسويقه فيها[5].

[1]– غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 213.

[2]– الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص ص: 386–387.

[3]– ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 75. وينظر أيضا: القزويني، المصدر السابق، ص: 261.

[4]– خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 150.

[5]– رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 290.

2- الواردات:

يستورد الموحدون بعض المواد الأساسية غالبا ما كان تستخدم في صناعة السفن التجارية والحربية، كما استوردوا بعض المعادن التي تدخل في صناعة الأسلحة كالحديد والنحاس وهي المواد التي حظرتها السلطات السياسية والدينية الأوربية نظرا باعتبارها كاملا لقوة المسلمين الذين اعتبروا وعدوًا للنصارى في جنوب أوربا واسبانيا.

لكن رغم قرارات الحظر فإن التجار الأوربيون خاصة الإيطاليون منهم عمل على تصديرها إلى البلاد الإسلامية بحيل مختلفة هروبا من العقوبة والغرامة، حيث كانت هذه المواد تسوق دون اللجوء إلى ديوانة الميناء أو قنصل الفندق الذي يحصي هذه السلع، فقد كان الواقع الاقتصادي أقوى من قرارات البابوية، إذ لم تنجح الأخيرة في منع تصدير هذه المواد سواء كانت معدنا خامًا أو مصنعا[1] ومن جملة الواردات ما يلي:

أ. الحديد والنحاس:

استورد الموحدون الحديد كمادة مصنعة وعلى رأسها السيوف التي كانت يجلبها التجار من منطقة بيزة[2]، كما استوردوا سبائك الحديد لاستخدامها في صناعة الأواني والآلات الحربية، مثل الخناجر والسيوف، وبعض الآلات، الفلاحية كالآلات الحرث وغيرها بالإضافة إلى المسامير التي كانت تستخدم في صناعة السفن[3].

كما صدر الايطاليون النحاس إلى المغرب في هذه الفترة بعد أن كان يستخرج من منجم انبثق بكميات كبيرة، حيث كانت كل من بيزة وجنوة تصدره بكميات كبيرة، كما كان يصدر منه إلى بلاد السودان[4].

[1]- غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 216.

[2]- الزهري، كتاب الجعرافيا، المصدر السابق، ص: 78.

[3]- غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 217.

[4] Me Mas Latrie, Op-Cit, p 210.

ب. الخشب:

ازداد طلب الموحدين على الخشب، حيث كانت مناطق الغابات في البلاد الإسلامية محددة وضيقة (نواحي صقلية والمغرب والأندلس)، حيث نفذت موارد الغابات من جراء ما استغلته منها الحضارات السابقة، فصار الطلب على الخشب قويا ومتزايدا[1]، فقد تم استيراده من جنوب ايطاليا في شكل خام ومنشور على حد سواء، خاصة بعد نصف الثاني من القرن السادس الهجري، حيث ازدادت حاجة الموحدين إلى هذه المادة لاستخدامها في صناعة السفن وتصليحها، فكان خشب الصنوبر يأتي عن طريق ميناء البندقية من الغرب المسيحي، كما لا تستبعد استيراده من بيزة نظرا لتوفرها على كميات هائلة من هذه المادة[2].

ج. التوابل:

وهي مجموعة المواد الزراعية والنباتية المتنوعة منها، الفلفل، والزنجبيل الكافور، والعدد وغيرها مع العقاقير الطبية والغذائية والتي كثر استعمالها عند الأوربيون منذ القرن الثامن الميلادي وخلال مرحلة الحروب الصليبية إلى أن صاروا يحتكرون تجارتها عبر البحر الأبيض المتوسط[3] نظرا لنقصها في بلاد المغرب والأندلس في هذه الفترة الأمر الذي شجع المدن الايطالية على توالي تجارتها، فمقدمتهم تجار جنوة، الذين جلبوا هذه التوابل والأقاوية من أسواق المشرق إلى موانئ المغرب[4].

ومما شجع الايطاليين على المتاجرة بها وجلبها هو خفة وزنها وكثرة عائدها المادي فهي غالية الثمن، وفي هذا السياق يقول الباحث شوب: «وإذا كانت بجاية قد شكلت وجهة مباشرة للسفن الجنوبية العائدة من الإسكندرية وسوريا، فلأنها كانت تستقبل التوابل المجلوبة مباشرة من المشرق فيستفيد الجنويين من انخفاض تكاليف النقل، عوض حمل التوابل من

[1]– خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 154.

[2]– الزهري، المصدر السابق، ص: 78.

[3]– الونشريسي، المعيار، المصدر السابق، ص: 26.

[4]– رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 282.

المشرق إلى جنوة ومنها إلى بجاية، وتشير العقود الجنوية إلى استثمار كاتب الجمارك ببجاية جيون فاني بون في البهار إذ يبعها ببجاية[1].

د. المواد النسيجية:

كانت الدول الإسلامية على رأس دول البحر الأبيض المتوسط في تصدير المواد النسيجية، القطنية منها الصوفية والحريرية، إلا أن الحروب الصليبية مكنت الأوربيين من الإطلاع عن تقنيات هذه الصناعة المتطورة، من بلاد الشام وغيرها من البلاد الإسلامية، فأضحت هذه المنتجات النسيجية من أكثر السلع التي تصدرها جنوة إلى بلاد المغرب[2]، فقد استورد الموحدون المصنوعات النسيجية من الدول الغربية منها القطن الخام، والكتان، والقماش الأسباني والحرير والطاقيات الكبيرة والأقمشة ذات اللونين (Bordo)، والأقمشة المصنوع تصنعها من الصوف، والنصف الآخر من مواد أخرى والأقمشة الملفوفة والأقمشة المخططة[3].

وقد أظهرت وثائق جنوية تخص عقود تصدير هذه السلع إلى الأسواق الخارجية، أن البلاد المغرب استقبلت أكبر كمية منها ما يعادل 36% من مجموع 95 وعقود صفقات التصدير، فقد كانت هذه الأقمشة الجنوية مطلوبة في كامل جهات المغرب من مجموع 35 عملية لتصدير الأقمشة من جنوة نحو بلاد المغرب، نجد 12 عملية تمت مع بجاية و13 عملية مع تونس و10 عمليات مع سبتة[4].

كما تحصي الوثائق تصدير الجنويين لمادة القطن المجلوبة من صقلية إلى بجاية إضافة إلى تصدير منسوجات من الكتان نحو مدينة بجاية[5].

[1]– غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 218.
[2]– رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 281.
[3]– غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 218.
[4]– رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 281.
[5]– غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 219.

أما القماش فقد لعبت جنوة دور الوسيط في نقل القماش الاسباني إلى المغرب في الفترة الموحدية، حيث نجد في مجموع الوثائق الجنوية عقدًا مؤرخ في 16 أفريل من سنة 1161م يتحدث عن تسليم تاجر اسمه "ملونوس" لكاتب الجمارك ببجاية الملقب "جيونافي يونو" عشر قطع من القماش الاسباني يبلغ طولها 43 ذراعا، بالإضافة إلى كمية من الحرير تقدر بـ 94 أوقية بقيمة 32 ليرة جنوية، وذلك من أجل نقلها إلى بجاية[1].

هـ. المعادن النفيسة والحلي:

شكلت الأحجار الكريمة والمصنوعات صنفا آخر من البضائع التي تاجر فيها الجنوية مع بلاد المغرب، والتي جلبوها من أسواق المشرق والتي كانت تصلحها هي الأخرى من الهند والصين، وشجع حكام المغرب، استيراد مثل هذه السلع الثمينة ذات القيمة العالية مثل الألماس الزمرد واللؤلؤ والياقوت والعاج والأواني الزجاجية والحلي المصنعة من الذهب والفضة، وميزوها بتعريفة جمركية ضعيفة لا تتعدى نسبة 2% من قيمتها[2].

و- الرقيق البيض:

كان الهدف الرقيق الأوربي ذوي البشرة البيضاء يتدفق بأعداد معتبرة من أوربا إلى بلاد المغرب، وعرف بالرقيق الرومي الذي يجلب من ناحية البحر الغربي[3].

وقد ذكر الحميري في قوله: «...جواري بيض الألوان»[4]، وكانت الأندلس من أهم المناطق التي يجلب منها الرقيق إلى المغرب وهو ما يمكن ملاحظته عبر الخدم البيض.

كما أبرز لنا ابن حوقل أجناس الرقيق الذي دخل بلاد المغرب في قوله « ومن المشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان من إفرنجة وجليقية والخدم، الصقالبة...فمن جلب الأندلس»[5].

---

[1]- غربي بغداد، المرجع السابق، ص: 220.

[2]- رشيد باقة، المرجع السابق، ص: 282.

[3]- هبيرات بلال وحلاق أحلام، تجارة الرقيق ببلاد المغرب الأوسط، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر الأكديمي، تخصص تاريخ القرون الوسطى، جامعة المسيلة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ، 2016-2017، ص: 28.

[4]- الحميري، المصدر السابق، ص ص: 50-64.

[5]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص ص: 105-106.

وكان رقيق أوربا يجلب خاصة عن طريق ميروقة ويبدوا أن الرقيق الأبيض كان أكثر من الرقيق المجلوب من السودان[1].

ز. السفن:

كان المغاربة يشترون السفن من النصارى وخاصة منهم البنادقة والجنويين لأن هذه الصناعة كانت متطورة عندهم، وقد تدخلت الكنيسة لتحريم بيعها وبيع أدوات الملاحة للمسلمين بسبب الحروب الصليبية، ورغم ذلك فقد كان الايطاليون يبيعون هذه السلع في جميع موانئ المغرب، وقد أعفى سلاطين المغرب هذه المواد من المكوس التي اقتصر دفعها على التجار الذين لم يكونوا متعاقدين معهم[2].

ومن خلال ما سبق ذكره نستنتج أن العلاقات التجارية بين الموحدين والدول الأوربية قد تحكمت فيها العلاقات السياسية، حيث يمكن التمييز بين علاقات المدن الإيطالية مع الموحدين، والممالك الإسبانية مع الموحدين من جهة أخرى.

وبالنسبة للمدن الإيطالية فقد ازدهرت العلاقات والمبادلات التجارية بين الطرفين وأصبحت مقننة بعقود واتفاقيات رسمية، ويعود ذلك إلى التغيرات السياسية والاقتصادية التي طرأت على دول حوض البحر المتوسط منذ نهاية القرن الخامس الهجري المتمثل في لتراجع البحرية الإسلامية من ناحية وتطور المدن الإيطالية على المستوى الاقتصادي من جهة، مما أهلهم لفرض أنفسهم كوسطاء للتجارة العالمية في الحوض المتوسط في هذه الفترة، فقد تصدرت مدينة جنوة مجال المبادلات التجارية مع الموحدين، والتي حظيت بامتيازات، وعلى الرغم من قدم العلاقات الالبيزية مع المنطقة إلا أنها كانت أقل مقارنة بجنوة، ويعود ذلك إلى ممارسات القرصنة التي مارسها بحارة بيزة على السواحل الموحدية.

وبالنسبة لكل من صقلية ومدينة البندقية فقد قل حجم مبادلاتها التجارية مع الموحدين، مقارنة بجنوة وبيزة، فقد كانوا في الغالب ما يعملون كوسيط لنقل منتجات صقلية

[1]– عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص: 629.

[2]– خديجة بورملة، المرجع السابق، ص: 155.

في بلاد المغرب وعلى رأس هذه المنتجات مادة القمح المادة الأساسية التي كانت تزود بها صقلية بلاد المغرب الإسلامي الموحدي.

وبالنسبة للممالك الإسبانية النصرانية فإن التوترات السياسية التي شهدتها المنطقة والأعمال العسكرية التي قام بها الطرفين من أجل المحافظة على الممتلكات المكتسبة بالنسبة للموحدين أو تنشيط حركة الاستيراد من طرف النصارى الإسبان، فكانت الحرب سجالا بينهما، إلى جانب النزعة الدينية للكنيسة، فإذا الموحدين اعتبروا التعامل مع الممالك نوع من الخيانة للدين والخليفة والذي يعاقب صاحبه بسلب روحه، خاصة إذا كان الأمر متعلقا بزيادة القوة وهو الأمر الذي جعل مجال المبادلات التجارية بصفة غير قانونية، وجد محتشمة.

وقد تنوعت صادرات وواردات الطرفين، فنجد كثرة الطلب من البلدان الأوربية على مادتي الذهب والعبيد، وفي المقابل استورد المغاربة كميات كبرى ومهمة من التوابل والمواد النسيجية والخشب والمواد الزجاجية.

وبالتالي كانت السلع التجارية هي القوة التي تدفع التجار إلى قطع المسافات البعيدة وطرق أبواب المدن والموانئ الأجنبية للبحث عنها أو تصريف جزء منها.

ولقد نمت المبادلات التجارية بينهم وازدهرت لدرجة أنه كلما حدث انقطاع أو خلل في مسار التجارة الخارجية بسبب الحروب أو المعوقات الطبيعية إلا وشعر سكان تلك الأقطار بالضرر الذي يصيبهم من جراء انعدام أو نقص البضائع المتبادلة.

خاتمة

من خلال دراستنا ومعالجتنا لموضوع "العلاقات المغربية النصرانية ما بين القرن (5هـ-7هـ) توصلنا إلى ما يلي:

- عند تراجع قوة المرابطين ظهرت قوة جديدة ببلاد المغرب وهي دعوة الموحدين بقيادة محمد ابن تومرت الذي خلفه عبد المؤمن بن علي الذي أطلق حرية الفكر للعلماء وأنشأ المساجد والمدارس حتى صارت مراكز للعلوم والمعارف، كما اهتم عبد المؤمن بتنشئة الطلبة ومتابعتهم بنفسه، كما اهتم بنشاطه الحزبي في الفروسية، وهؤلاء أسند إليهم مناصب مهمة في الدولة، ووطد بهم سلطان الموحدين وجعله ملكا وراثيا لأسرته واحتفظ عبد المؤمن لنفسه بالقيادة العليا.

- أهم ما ميز فترة حكم عبد الله يعقوب بن يوسف موقعه الأرك التي ألحق فيها الهزيمة بالنصارى 591هـ- 1195م.

- رغم طغيان العلاقات العدائية بين الطرفين الموحدي والنصراني إلا أنها تخللتها علاقات سلمية وتجسد ذلك في المعاهدات التي كانت تعقد بين الطرفين.

- على الرغم من أن العلاقات السياسية الموحدية النصرانية غلب عليها طابع التوتر والنزاعات الحربية إلاّ أن مصلحة الدولة تجاوزت في الكثير من الأحيان عن تلك النزاعات والمشاحنات.

- فنجد أن الدولة الموحدية منذ أيام عبد المؤمن بن علي جمعتها الكثير من الاتفاقيات الاقتصادية مع أوربا المسيحية.

- الحنكة سياسية في ذلك، حيث كانت تلجأ إلى عقد هدنة كلما أحست باقتراب الخطر أو الهزيمة فتكون بينهما معاهدة الإصلاح أو تبادل التجاري، وفي هذه الفترة تبني قوتها وعندما تجمع شملها وقواها بتحالفها مع بقية الممالك تنقض المعاهدة وتعلن الحرب من جديد (تحالف مملكة ليون وقشتالة).

– فبعد فشل النصارى في معركة الأرك، أصدر النصارى فرمان مقدس تمثل في الاتحاد الشامل بينهم من أجل الانتقام لموقعة الأرك التي حلت بهم وأثرت في نفوسهم ضد الموحدين – وتجلى ذلك في موقعة العقاب التي جمعت بين الطرفين الموحدي والنصارى في حرب شديدة ولم يشهد لها مثيل حيث نَكل النصارى بالمسلمين وألحقوا بهم هزيمة ذريعة وكانت بمثابة الضربة القاضية للموحدين.

– أما بالنسبة للأندلس كانت فاتحة بوابة النهاية لهذه البلاد كل ما جرى من أحداث في هذه المرحلة كان له واقع سيء أثر بالسلب على الدولة الموحدية والأندلس، فالموحدون كانوا يقاتلون على جهتين، الجهة الأولى مثلتها حركة بني غانية التي ظهرت في المغرب وإفريقيا من أجل تحطيم دولة الموحدين وتأسيس دولة تعيد أمجاد المرابطين. أما الجهة الثانية فكانت تمثلها وتترأسها العقيدة النصرانية حيث ظهر النصارى في شمال الأندلس وحاولوا التوسع على حساب المسلمين، وتمكنوا في الأخير من تحقيق طموحاتهم ودليل هذا انتصارهم في معركة العقاب عند الموحدين، كل هذه الوقائع جعلت الدولة الموحدية تضعف وتسقط.

– بعد سقوط السلطة الموحدية بالأندلس بعد الهزيمة الكبرى في معركة العقاب سنة 609هـ، تغيرت الظروف كثيرا في أرض الأندلس، مما أدى إلى تفوق المسلمين وظهور زعمات محلية متحاربة مع بعضها البعض في حين قام النصارى في المقابل بالاتحاد والتقارب فيما بينهم.

– رغم طغيان الطابع العدائي على العلاقات الموحدية والنصرانية إلا أنها شهدت أيضا علاقات تجارية وذلك لمعرفة الدولة الموحدية من كثرة الإنتاج وتنوعه وهو أمر خلق تنوعا في المادة التجارية المعروضة، ومن ثم حركة ونشاطا في المبادلات الداخلية والخارجية.

– أما بالنسبة لسياسة الدولة المشجعة للنشاط التجاري على المستوى الخارجي فقد انتهجت مبدأ الانفتاح على الكيانات السياسية المجاورة للدولة، باستثناء الممالك الإسبانية، والانتفاع منها اقتصاديا من خلال ربط علاقات تجارية معها وفق إطارات قانونية تمثلت في عقد مجموعة من الاتفاقيات، كما قدمت مجموعة من الامتيازات لبعض الدول في إطار تشجيع العلاقات التجارية، كما هو الحال بالنسبة للمدن الإيطالية وبصفة خاصة حكومة جنوة، كما

عملت على محاربة بعض المظاهر المؤثرة على العلاقات التجارية كأنشطة القرصنة وإصدار مراسيم وعقد اتفاقيات تمنع العمل القرصني ومعاقبة القرصنة.

-كما يلاحظ حرص المدن الإيطالية على ربط العلاقات مع الموحدين وتقويتها خاصة بعدما شهده العالم من تطورات في هذه الفترة من خلال انحصار الوجود الصليبي في المدن الإسلامية المشرقية (بلاد الشام)، بسبب الامتداد الذي حققه صلاح الدين الأيوبي على حسابها، واستحواذ البندقية على العلاقات التجارية مع الدولة البيزنطية في ظل الحكومة اللاتينية الجديدة التي بسطت سيطرتها عليها واعتبرت حليفا أساسيا وشريكا اقتصاديا مهما للبنادقة فأصبحت الدولة الموحدية سوقا دوليا لابد منه لبيزة وجنوة في ظل هذه التطورات.

- وعلى الرغم من ذلك فإن كثيرا ما كانت هذه العلاقات تتوتر بين الطرفين مع بيزة تارة ومع جنوة تارة أخرى بسبب ظاهرة القرصنة التي كان يمارسها البحارة الإيطاليون على السواحل المغربية (بجاية، المهدية، طرابلس، سبتة)، وهو الأمر الذي كانت تتضرر منه الجالية الأوروبية المتمركزة في المراكز التجارية الموحدية بسبب ردود الأفعال سواء من طرف الحكومة أو الأفراد، كمصادرة الأموال أو إحراق الفنادق الخاص بالجالية الإيطالية من طرف العامة.

- كانت حاجة النصارى لبعض المواد الفلاحية والصناعية عند الموحدين ضرورة جعلتها تقوم بعقد معاهدات معهم للحصول عليها، وكانت العملة الموحدية أساسا للمعاملات التجارية لدى بعض الدول الأوروبية، فنجد إيطاليا مثلا كانت تستبدل الذهب بالسلع التجارية المختلفة الأمر الذي ينتج عنه نفاذ العملة، مما يدعو إلى ضرورة زيادة ضرب السكة من طرف الحكومة الموحدية.

- والحال يختلف في إطار العلاقات التجارية مع الممالك الإسبانية، إذ ما قورن بالمدن الإيطالية، إذ اتسمت العلاقات بين إسبانيا والموحدين بالقطيعة وعدم التواصل وهو أمر فرضه طبيعة الصراع القائم بين أوروبا المسيحية والموحدين بالقطيعة وعدم التواصل وهو أمر فرضته طبيعة الصراع القائم بين إسبانيا النصرانية والموحدين، حيث نظرت الكنيسة ورجال الدين إلى هذه العلاقات في إطار صليبي ضيق مخالف لنظرة الإيطاليين المتسمة

بالنفعية، فحرمت البابوية التعامل تجاريا مع المسلمين (الكفار في نظرهم) خاصة إذا ما تعلق الأمر بالسلع التي تعتبر مادة أولية في مجال الحروب كالأخشاب والحديد، وفرضت عقوبات قاسية على من تثبت في حقه تهمة الاتجار مع المسلمين، وهو أمر عاملت الدولة الموحدية بمثله، حيث أصدر الخلفاء مراسيم تقضي بعدم الاتجار مع نصارى الأندلس وعلى الرغم من هذا فلا تخلوا العلاقات من وجود بعض المبادلات ولو بصفة سرية.

وفي الأخير نذكر بأن التجارة الخارجية للدولة الموحدية مثلت أساسا من أسس الاقتصاد الموحدي، وامتازت بالرواج والنشاط مع أغلب الكيانات السياسية المجاورة للدولة ولم يمكن للسلطة الموحدية التي بسطت نفوذها على كامل بلاد المغرب وأرض الأندلس، وكونت إمبراطورية مترامية الأطراف أن تتمكن من ذلك لفترة معتبرة من الزمن إلا بتوفرها على نظام اقتصادي مزدهر مثلت التجارة الداخلية والخارجية أهم جانب فيه.

الملحق

الملحق رقم 01: خريطة لدولة الموحدين[1]

[1]- ناصر بن ميلود، الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، ص:

الملحق رقم 02: معركة الأرك[1]

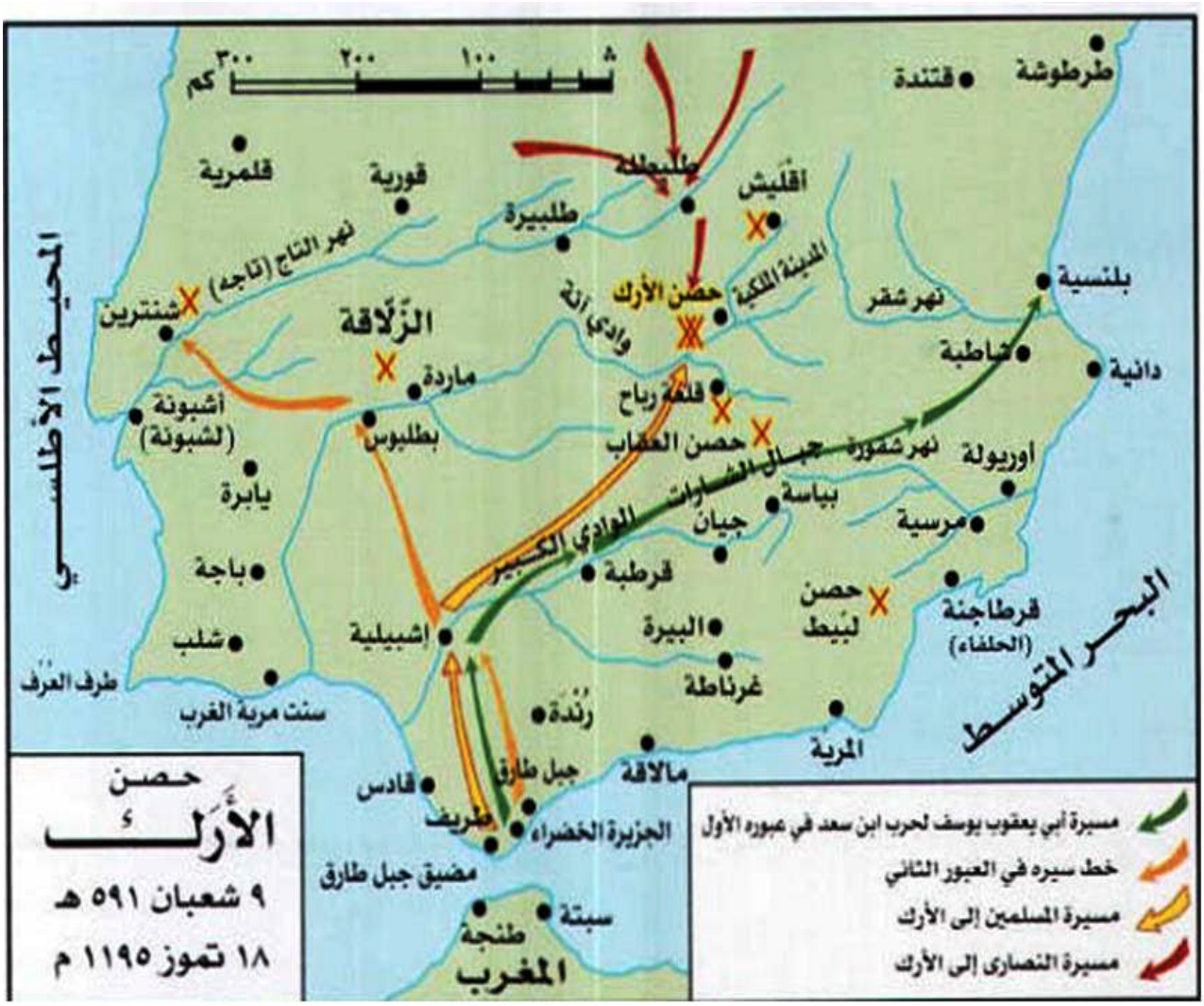

[1]- خميسي بولعراس، المرجع السابق، ص:

الملحق رقم 03: معركة حصن العقاب[1]

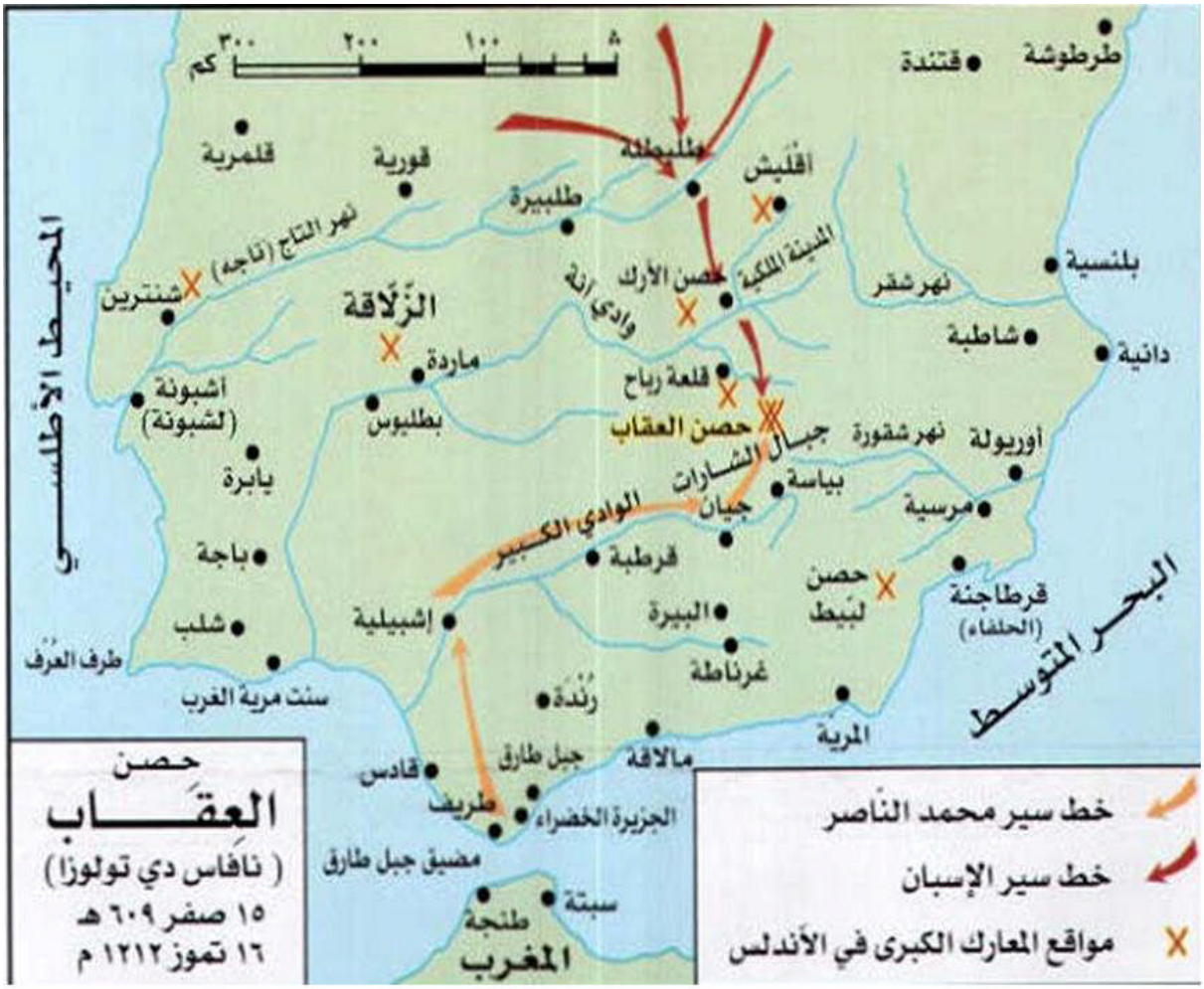

[1]- خميسي بولعراس، المرجع السابق، ص:

الملحق رقم 04: الطرق التجارية في النصف الأول من القرن السادس[1]

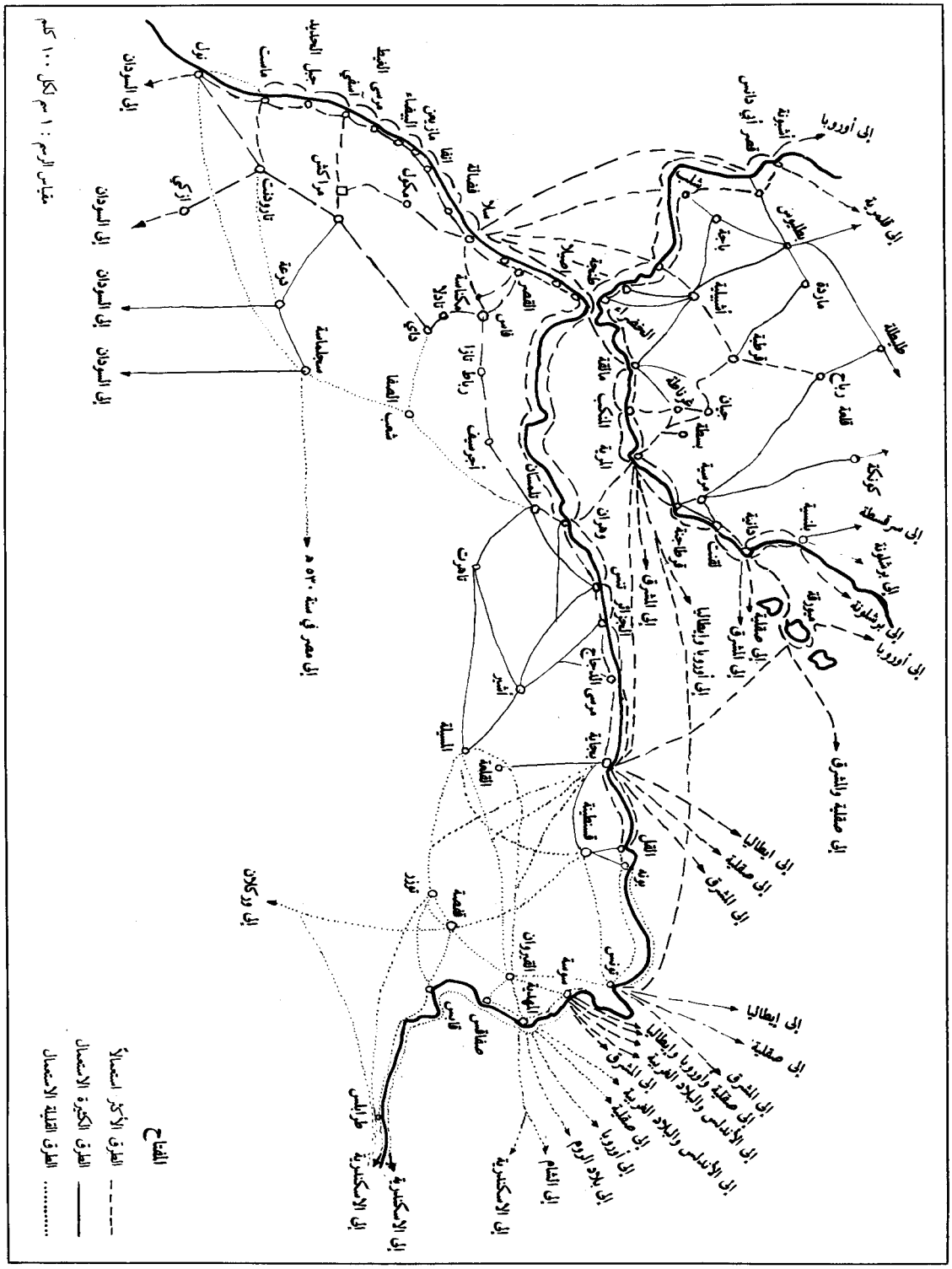

[1]– عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي بالمغرب الإسلامي خلال القرن السادس هجري، ص : 307.

الملحق رقم 05: الطرق التجارية في العصر الموحدي[1]

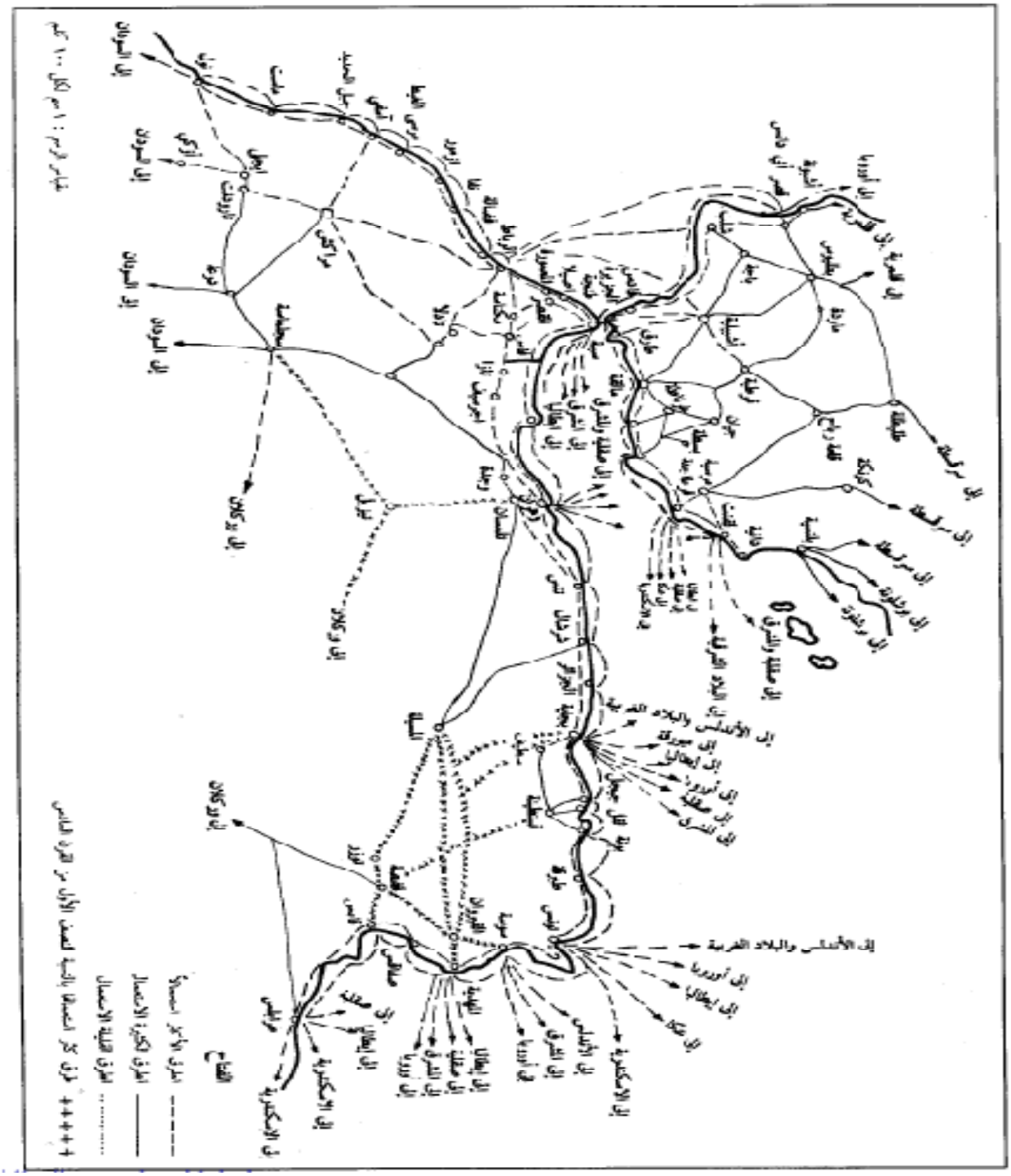

[1]– عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي بالمغرب الإسلامي خلال القرن السادس هجري، ص : 310.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

أولا: المصادر

1. الإدريسي بن عبد الله محمد بنّ إدريس الحموي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج 1، مكتبة الثقافة الدينية للنشر، القاهرة، 2002، (دط).
2. الاصطخري أبي إسحاق بن إبراهيم بن محمد الفارسي، المسالك والممالك، مطبعة بريل، مدينة ليدن، المحروسة، (دت)، (دط).
3. أبي عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبعة حجرية، الجزائر، 1858، د.ط
4. ابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد الكيلاني الأندلسي، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.س، د.ط.
5. علي الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تخ: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1411هـ 1991م، ط2.
6. الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، د.ط، دس، ج2.
7. ابن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تح: حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ع: 261، 1378هـ/1958م، مج6.
8. الحموي ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله (ت624هـ1229م)، معجم البلدان، دار صادر للنشر، بيروت، لبنان، 1977م، د.ط، ج1.
9. الحميري محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر الثقافية، لبنان، 1979م، د.ط.
10. : صفة جزيرة الأندلس، من كتاب الروض المعطار، نر: ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1988.
11. ابن حزم الأندلسي: أنساب العرب، تح وتع: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، (دس)، ط5.
12. ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي (ت367هـ/977م)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، 1996م، (دط).

13. ابن خلدون عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مر: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة، دب، 1421هـ 2000م، دط، ج6.

14. : المقدمة، مرا: هيثم جمعة هلال، ط.1، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، لبنان، 2007م.، ج1.

15. ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم الرغيبي القيرواني المعروف ، المؤنس في إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحضارتها المحمية، 12674هـ، ط1.

16. ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، د.ط.

17. : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تح: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1399هـ 1972م.د.ط.

18. الزهري أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، الجعرافية، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، دب، دط.

19. ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، د.س، ط4، ج1.

20. السقطي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد ، في آداب الحسبة، النشر ج.س. كولان، وليفي بروفينسال، باريس، 1930، د.ط.

21. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1964، ط1.

22. ابن العوام أبي زكريا يحيى بن محمد بن أحمد الإشبيلي، الفلاحة الأندلسية، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، 1433هـ/ 2012م، دط، ج1.

23. بن عبد ربه، الاستبصار في عجائب الأمصار، تح: سعد زغلول عبد الحميد، دار شؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ط.

24. ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج.س.كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط3، بيروت، لبنان، 1983م، ط3، ج1.

25. العزفي أبو العباس أحمد السبتي، إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمدّ، تخر ودر: محمد الشريف، السلسلة الأندلسية، دس، د.ط.

26. ابن القطان أبي محمد حسن بن علي بن محمد عبد الله الكتامي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ط1.

27. القلقشندي أبي العباس أحمد ، صبح الأعشى، مطبعة الأميرية، القاهرة، 1913، دط، ج5.

28. مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تح: سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة الجامعة، الإسكندرية، 1958م، د.ط.

29. مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، تح: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، ط1، 2007، بيروت– لبنان.

30. مؤلف مجهول، تلخيص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعية وتبيين مقاديرها، نشر محمد الشريف، مجلة التاريخ العربي، عدد11، 1420هـ1990م، د.ط.

31. ابن السمّاك العامري، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار، عبد القادر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاءن 1399هـ 1979م، ط1.

32. صالح بن عبد الحكيم الكيلاني المصمودي، مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2005م، ط1.

33. المراكشي عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيدالعريان، المجلس الأعلى للشؤون الاجتماعية الإسلامية، بالجمهورية العربية المتحدة، دس.

34. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2004.

35. ابن وردان، تاريخ مملكة الأغالبة، تح: محمد زينهم، محمد غربان، مكتبة مديولي ، د.ب، 1988م، ط1.

36. الونشريسي ابو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ، د.ط، ج2.

ثانيا: المراجع:

37. إبراهيم آل مصطفى، سفارات الأندلس إلى ممالك أوروبا المسيحية الكاثوليكية، مكتبة الثقافة الدينية، 1434هـ/2013م، ط1، ص109.

38. إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، د.س، ط1، ص، ص: 10.

39. إبراهيم حسن، تاريخ المغرب العربي في عصر الولاة، مطبعة المختار القاهرة،، 1997.

40. ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناسن (دب)، 1929م، ط1، ج1.

41. أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح وتع: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، 1954م، دط، ج2.

42. أحمد العزاوي، العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصر الوسيط من خلال نصوص عربية للمراسلات واتفاقيات السلم والتجارة، مطبعة الرباط، 2011م، ط1، ج11.

43. أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1.

44. أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، 1963م، ط1، 1966م، ط2.

45. أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، د.س، د.ط.

46. أرشليبالد لويس، القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط، تر: أحمد محمد عيسى، تق: محمد شفيق غربال، مؤسسة فرونكلين للطباعة وانشر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة نيويورك، 1960، د.ط.

47. أمني توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، دار العربية للكتاب، دب، 1997م، د.ط.

48. أمين واصف بك، فهرست معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، تح: أحمد زكي باشا، مكتبة الثقافة الدينية، دار المصري للطباعة، د.س، د.ط، ص: 107.

49. بوبة مجاني، التيارات السياسية والدينية وتأثيرها على نظم الحكم في بلاد المغرب والأندلس، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، ثورة أول نوفمبر 1954م، ط5، وزارة المجاهدين.

50. بورويبة رشيد، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977-1397.

51. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، دس، دط، ج4.

52. حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، د.س، د.ط.

53. الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة، د.ب، 1406هـ/1986م، ط2.

54. حسن خضيري أمد، علاقات الفاطميين بدول المغرب، مكتبة مدبولي، د.ب، د.س، ط1.

55. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي بمصر، 1980م، ط1.

56. حسن، تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1264هـ، ط7، ج1.

57. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة أسرة الأعمال الفكرية، 2004م، د.ط.

58. حمدي عبد المنعم، محمد حسين، مدينة سلا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993م.

59. راغب السرجاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة اقرأ، القاهرة، 1432هـ/ 2011م، ط1.

60. روبار برانشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 16، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988، ط1، ج1.

61. سامية مصطفى محمد مسعد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين من 480هـ620هـ/1092م-1223م، المكتبة الثقافية الدينية، د.س، د.ط.

62. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م، د.ط.

63. سعيدون نصر الله، دولة المرابطين في المغرب، والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م، ط1.

64. سوادي عبدون محمد، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب الإسلامي من القرن 2هـ حتى نهاية القرن 7هـ، كلية التربية، جامعة البصرة، د.س، د.ط.

65. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، جامعة الإسكندرية، د.س، د.ط.

66. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2011، د.ط.

67. شاكر مصطفى، الأندلس في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة الجمهورية، العربية السورية، دمشق، 1490هـ، د.ط.

68. شوقي أبو خليل، الأرك بقيادة أو يعقوب المنصور الموحدي، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، 1989، ط1.

69. شوقي أبو خليل، معركة العقاب، دار الفكر، 1989م، ط1.

70. شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)، ط1، 1988، مكتبة أنجلو المصرية، القاهرة، 1988، ط1.

71. طارق السويدان، الأندلس التاريخ المصور، شركة قرطبة للإنتاج الفني، الكويت، ربيع أول 1426هـ، أفريل 2005م، ط1.

72. عبد الحميد حسن حمودة، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2006م، ط1.

73. عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، دار القومية للطباعة والنشر، د.ب، 1966م، د.ط.

74. علي محمد الصلابي، تاريخ المرابطين والموحدين، دار المعرفة، بيروت– لبنان، 1430هـ/ 2009م، ط3.

75. عبد العزيز غوردو، عبد الرحيم تمحزي، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب جدلية التمدين والسلطة، دار ناشري للنشر الإلكتروني، د.ب، 1432هـ/2011م، ط2.

76. عبد العليم أنور، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جانفي 1978.

77. عبد القادر درقلاني، الدولة الإسلامية في الأندلس من الميلاد إلى السقوط، دار الأصالة، د.ب، 1431هـ/ 2010م، ط1.

78. عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، المركز الثقافي العربي، ط5، ، ج1.

79. عبد الله بن علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، مصر، د.ت، د.ط.

80. عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب، دار المعارف، مصر، د.س، د.ط.

81. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ع3، مكتبة الخانجي، د.ب، 1990م، ط2.

82. عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، دار الغرب الإسلامي، د.ب، 1983م.

83. عبد الواحد ذو نون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2004م، ط1.

84. عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، د.س، د.ط.

85. عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي بالمغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، ط2.

86. عزيز سوريان عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، تر: فيليب صابر سيف، دار العالم العربي، القاهرة، 1972، ط1.

87. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، دس، القاهرة، دط.

88. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر ملوك الطوائف الثاني، دار الغرب الإسلامي، د.ب، 1408هـ/1988م، ط1.

89. علي إسلام باشا، إسبانيا والأندلس، مدير بنك مصر، الإسكندرية، 2001م، د.ط.

90. علي محمد الصلابي، صفحات من التاريخ الإسلامي (دولة الموحدين)، دار بيارق للنشر، عمان، 1998.

91. ليفي بروفنسال مجموع الرسائل الموحدية من إنشاء الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم المغربية، رباط الفتح، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1991، د.ط، ج10.

92. محمد الأمين محمد ومحمد علي الرحماني، المفيد في تاريخ المغرب، دار الكتب، الدار البيضاء، ذ.س، د.ط.

93. محمد الشريف، سبتة الإسلامية دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي (عصر الموحدين والمرينيين) تق: محد بن عبود، جمعية تيطوان، الرباط، 1995-2006، ط1، ط2.

94. محمد بن أبي القاسم الرغيبي القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المؤنس في إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحضارتها المحمية، 12674هـ، ط1.

95. محمد رجب الزائدي، قبائل العرب في ليبيا، منشورات دار الكتاب الليبي، بنغازي، 1968م، د.ط، ج1.

96. محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية، الباقية في إسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ط2.

97. محمد عبد الله عنان، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ط2.

98. محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160-296هـ) كلية الآداب، جامعة المنصورة، د،س، ط3.

99. محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية64-897هـ/ 683- 1492م، دراسة نصوص وثائق الإسلام، مؤسسة الرباط، بيروت، شارع سوريا، 1406هـ/ 1986م، ط2.

100. محمود إسماعيل، الأغالبة (184-196م) وسياستها الخارجية، ط3، 2000م، عين الدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية.

101. مصطفى نشاط، جنوة وبلاد المغرب من سنة 609هـ/1212م إلى سنة 759هـ/1358م، مساهمة في دراسة العلاقات الإيطالية المغربية أواخر العصر الوسيط، مطابع الرباط، 2014م، دط.

102. موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول من القرن 2-5هـ/ 8-11م، تح: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، 1411هـ-1990م، ط3.

103. موسى القبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ط2.

104. مونتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، تر: محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، شارع جان دارك، بيروت- لبنان، 1998، ط2.

105. هشام أبو رميلة، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط1، 1404هـ1984م، دار الفرقان، جامعة النجاح نابلس، 1404هـ 1984م، ط1.

106. يوسف خليل محمد، الأنباء الخفية من الشيعة العلوية، الدار الإسلامية، 1418هـ/1996م، ط1.

ثالثا: المذكرات والأطروحات

107. انتصار محمد صالح الدليمي، التحديات الداخلية والخارجية التي واجهت الأندلس جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، 1426هـ-2005م، مجلس كلية الآداب في جامعة الموصل.

108. بوحسون عبد القادر، الأندلس في عهد بني الأحمر، دراسة تاريخية وثقافية (635هـ897هـ/1238-1492م)، أطروحة دكتوراه، جامعة ابي بكر بلقايد، 2012-2013م، تلمسان.

109. حفصاوي الزهرة، صنهاجة ودورها في الصراع المذهبي بلاد المغرب الأوسط (297-543هـ/909-148م)، مذكرة لنيل شهادة الماستر في تاريخ المغرب الأوسط، جامعة ابن خلدون، 2013-2014، تيارت.

110. خديجة بورملة، التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في حوض البحر المتوسط من القرن السادس الهجري إلى التاسع الهجري 12-15م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه، علوم في التاريخ الوسيط، جامعة وهران، 2017-2018م، ص: 67.

111. خيرة بلعربي، المسالك والدروب وأثرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي 5هـ - 10م/ 11هـ16م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ، 2009-2010م، ص ص: 28-29.

112. دريس بن مصطفى، العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب الإسلامي مع دول جنوب غرب أوروبا في الفترة (ق 7-10هـ/ 13-16م)، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه، 2013- 2014م، جامعة تلمسان.

113. راكة عمر، علاقات الدولة الموحدية بالإمارات الإسلامية والممالك المسيحية في الأندلس، مذكرة لنيل شهادة الماجستير،2013- 2014م، جامعة تلمسان، ص ص18-19.

114. رشيد باقة، نشاط جنوة الصليبي والتجاري في سواحل بلاد المغرب من القرن الثاني إلى القرن الخامس عشر ميلادي، مذكرة لنيل شهادة دكتوراه، دولة في تاريخ العصور الوسطى للعلوم الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، 2006-2007م، ص ص: 25-26.

115. رضا بن النية، صناهجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين بمصر (80هـ699م/632هـ/973م)، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005-2006.

116. طيبي سهام: المعادن في بلاد المغرب الإسلامي الوسيط، مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الوسيط الإسلامي، جامعة 08 ماي قالمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1438هـ1439هـ/ 2016-2017م.

117. عامر عبد الله حسن، دولة بني مرين تاريخها وسياستها تجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك النصرانية في إسبانيا (668-869هـ/1269-1465م)، أطروحة لنيل شهادة الماجستير، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، 1424هـ/2003م، فلسطين.

118. عبد الحميد هلال عبد الحميد، الزراعة في المغرب الأقصى في عصري الموحدين وبني مرين (524هـ/113-1949م)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب، تخصص التاريخ الإسلامي، كلية الأدب.

119. عبد العزيز رشيد، زراعة الحبوب بالمغرب الأوسط من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين، 668هـ/1269م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، جامعة الجزائر، 2012-2013م.

120. علي دندش وبلال قنيفي، طرائق الزراعة في بلاد المغرب والأندلس خلال القرون الأربعة الأولى من الفترة الإسلامية، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة محمد بوضياف، 2016-2017م، المسيلة.

121. غربي بغداد، العلاقات التجارية للدولة الموحدية، مذكرة تخرج دكتوراه، علوم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2014-2015.

122. لمياء أحمد شافعي، المغرب الأدنى في عهد ولاة بني العباس حتى قيام الأغالبة، أطروحة لنيل شهادة الماجستير، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، 1420هـ، كلية الشريعة والدراسات العليا.

123. مجدي يس عبد العال، عبد الله سلام، العلاقات التجارية بين دولة بني مرين والجمهوريات الإيطالية (جنوة، بيزة، البندقية)، 656-865هـ/258-646م)، رسالة دكتوراه، شعبة التاريخ الإسلامي، ق التاريخ، 2004-2005م.

124. محمد بن ساعو، التجارة والتجار في المغرب الإسلامي ق 7-10هـ/13-15م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2013-2014م.

125. هبيرات بلال وحلاق أحلام، تجارة الرقيق ببلاد المغرب الأوسط، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر الأكديمي، تخصص تاريخ القرون الوسطى، جامعة المسيلة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ، 2016-2017.

رابعا: المراجع باللغة الأجنبية:

126. Amari, M, I Diplomi Arabi dell Archivio Fiorentino, T1, M1, 1863

127. De Mas Latrie, Les relations des chrétiens avec les arabes de l’afrique septentrionale au moyen Age, paris, 1866,

128. Hazard, Harry, (Williams), Numismatic History of late mediaval north Africa, New York, 1952

فهرس الموضوعات

شكر وعرفان

الإهداء

قائمة المختصرات

مقدمة .....أ

المدخل: الواقع الجغرافي والتاريخي لبلاد المغرب الإسلامي والممالك النصرانية

المبحث الأول: موقع وحدود المغرب الإسلامي 7

المبحث الثاني: أقسام بلاد المغرب الإسلامي 10

1- المغرب الأدنى 10

2- المغرب الأوسط 11

3- المغرب الأقصى 12

4- الأندلس 14

المبحث الثالث: سكان المغرب 15

1- البربر 15

2- الأفارقة 18

3- السودان 18

4- سكان الأندلس 18

المبحث الرابع: المغرب الإسلامي سياسيا 19

1- ظهور الموحدين 19

2- قيام دولة الموحدين 23

3- إسقاط دولة المرابطين 23

المبحث الخامس: الواقع السياسي للممالك النصرانية 26

1- الممالك الاسبانية 26

2- الإمارات الايطالية 30

3- أسباب قيام الممالك 31

الفصل الأول: الصراع الموحدين النصراني (5هـ 7هـ)

المبحث الأول: ظروف موقعة الأرك 33

1- حروب الموحدين مع ليون 38

2- حروب الموحدين مع البرتغال 42

المبحث الثاني: موقعة الأرك (591هـ/ 1195م) 44

1- الأسباب 44

2- النتائج 51

المبحث الثالث: موقعة حصن العقاب (609هـ/ 1195م) 54

1- الأسباب 54

2- الظروف 57

3- أسباب الهزيمة في موقعه العقاب 68

4- النتائج 70

الفصل الثاني: العلاقات التجارية بين الموحدين والممالك النصرانية

المبحث الأول: النشاط الزراعي والصناعي للدولة الموحدية..... 77
1- الزراعة 77
2- الصناعة..... 84
المبحث الثاني: التجارة في العهد المرابطي..... 90
1- عوامل ازدهار التجارة 91
2- البيوع المتداولة في المبدلات التجارية 94
3- آليات المبادلات التجارية 95
4- الطرق والمسالك التجارية ووسائل النقل..... 98
5- المنشآت التجارية..... 104
المبحث الثالث: العلاقات التجارية للدولة الموحدية مع البلدان الأوربية 107
1- مع المدن الإيطالية..... 108
2- مع الممالك الإسبانية 112
المبحث الرابع: المبادلات التجارية بين الموحدين والممالك النصرانية..... 117
1- الصادرات..... 117
2- الواردات 125
خاتمة..... 132
الملاحق..... 137
قائمة المصادر والمراجع 143
فهرس الموضوعات..... 156